ما مدى إفادة المناهج النقدية واللسانية الحديثة في دراسة النص القرآني؟

الباحثون المشاركون

عبد الرحمن بودرع
محمد أبو زيد أبو زيد
أحمد نتوف
ميلود عرنيبة
محمد بلعيد
مصطفى العادل
خاليد حسني
سليمان محمد أمين السلامة

اسم الكتاب:

ما مدى إفادة المناهج النقدية واللسانية الحديثة

في دراسة النص القرآني؟

تأليف: مجموعة باحثين

الناشر: مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

بلد النشر: دولة قطر

سنة النشر: 2021

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر

بالضرورة عن وجهة نظر مؤسسة وعي

نحو ثقافة مؤصلة

ما مدى إفادة المناهج النقدية واللسانية الحديثة في دراسة النص القرآني؟

مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

الباحثون المشاركون

أ. د. عبد الرحمن بودرع

أ.د. محمد أبو زيد أبو زيد

د. أحمد نتوف

د. ميلود عرنيبة

أ. محمد بلعيد

أ. مصطفى العادل

د. خالد حسني

د. سليمان محمد أمين السلامة

محتوى الكتاب

تقديم ٦

البحث الأول: أهمية المناهج اللسانية الحَديثَة في دراسة النص القُرآني: منهج لسانيات النّصّ وتَحليل الخِطاب نَحو قِراءَةٍ لسانيّةٍ في البِناءِ النّصّيّ للقُرآن الكَريم..... ٨

البحث الثاني: مدى إفادة المدرسة التاريخية في فهم القرآن الكريم..... ٧٨

البحث الثالث: قصص القرآن في ضوء نظرية التحوّل الإشاري: قصّة أصحاب الكهف أنموذجًا..... ١٣٣

البحث الرابع: نظرية التأويل التقابلي عند محمد بازي وتحليل الخطاب القرآني: المنجزات والآفاق.... ١٦١

البحث الخامس: أثر المنهج التفكيكي في النص القرآني..... ١٩٤

البحث السادس: إشكالية التوظيف الحداثي للمناهج اللسانية في دراسة النص القرآني: ابستمولوجيا اللسانيات عند مولاي أحمد العلوي ونقده لمنهج أركون مثالًا..... ٢١٨

الملحق: القسط، الخليفة، الجهاد في القرآن الكريم: دراسة دلالية مقارنة..... ٢٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مدى إفادة المدرسة التاريخية في فهم القرآن الكريم

أ.د. محمد أبو زيد أبو زيد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعة تبوك، المملكة العربية السعودية

prof.abuzaid@gmail.com

ملخص

أدى التسلط الشديد الذي مارسته الكنيسة ورجال الدين على الدولة والشعب في أوربا إبان العصور الوسطى، إلى إذلال الناس وتخلف الدول، وانتشار الجهل والاستبداد والظلم، مما أسهم في تعاظم النفور من الدين بكل مكوناته، والتطلع إلى الخلاص منه أملا في التخلص من ويلاته التي مارسها مَن عَدّوا أنفسهم أوصياء ممثلين له. وتعددت أشكال الاستغاثة والطموح، فكان منها ظهور المدارس الفكرية والنقدية واللسانية والتاريخية الحديثة، التي كان النص موضوعها الأساس، بمحموله الذهني السابق في كونه قيدا كبّل أوروبا وأدى إلى تخلفها. ولذلك لا غرابة في أن نجد بُعد الانتقام من النص الديني يستتر خلف هذه الدعوات، كونه الحارس الظالم لتلك الفترة المظلمة.

ولما استُجلبت هذه الأفكار والمدارس إلى مجتمعاتنا بما تحمله من وعود التقدم والتطور، لم يلحظ أنصارها فروق البيئة والمسببات، فالقرآن هنا كلام الله المحفوظ، له قدسيةٌ في بيئته، وأثره في تقدم المسلمين والحضارة الإنسانية لا ينكره إلا جاحد.

ولذلك كان لا بد من إعادة النظر؛ للوقوف على إمكانية الإفادة من هذه المناهج عند تطبيقها على القرآن الكريم، فقد تعلمنا أن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أولى بها. وليس العيب في الاستماع والاطلاع، وإنما العيب أن نتخذ مواقف مسبقة مبنية على عصبية أو تعصب.

ويسعى هذا البحث إلى معرفة مدى الإفادة من المدرسة التاريخية في فهم القرآن الكريم، من خلال منهج وصفي تحليلي، ولاسيما أن هذه المدرسة في فهم النص غربية المولد والنشأة، جاءت إثر مخاض العصور الوسطى المظلمة في أوروبا.

وقد رصد البحث أسباب نشأتها، وأثر البيئة فيها، وأوضح أن النص الديني كان مركز اهتمام هذه المدرسة، لذا كان من ركائزها أن النصوص منتجات بشرية، لا فرق في ذلك بين مقدس وغيره.

وبالنظر في تطبيقات هذه المدرسة التفسيرية على القرآن الكريم، تبين أنها لم تلحظ أصول التفسير المعتبرة في فهم القرآن الكريم، ولا ضوابط العربية وأصول البحث العلمي السليم، ولا تستطيع التخلي عن مرتكزاتها في كون النص منتجا بشريا لا قداسة له، وأنه عُرضة لتطورات غير متوقعة، فكانت تفسر القرآن الكريم تفسيرا انتقاميا للعصور الوسطى التي رانت على بيئتهم بما فيها من نصوص أوصلت إلى تخلف وظلام، دون أن ينتبهوا إلى أنه في تلك الفترة ذاتها كان نور العلم والمعرفة والحضارة يسود الجانب الآخر في بيئة منطلقها كتابٌ مقدس هو كلام الله.

بُنيت هذه الدراسة على مبحثين:

المبحث الأول: تعريف المدرسة التاريخية، وأثر البيئة فيها، وأهم مرتكزاتها

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف المدرسة التاريخية وأثر البيئة فيها.

المطلب الثاني: أهم مرتكزات المدرسة التاريخية ومدى انطباقها على القرآن الكريم

وأما المبحث الثاني فكان: مدى الإفادة من المدرسة التاريخية في فهم القرآن الكريم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أصول تفسير القرآن مقارنة بالمدرسة التاريخية

المطلب الثاني: نماذج تطبيقية من تفاسير المدرسة التاريخية

ثم الخاتمة متضمِّنة النتائج

المبحث الأول: تعريف المدرسة التاريخية، وأثر البيئة فيها، وأهم مرتكزاتها

المطلب الأول: تعريف المدرسة التاريخية وأثر البيئة فيها

المقصد الأول: تعريف المدرسة التاريخية

المعنى اللغوي

لفظ: (التاريخ) معروف في اللغة العربية، إلا أن لفظ: (التاريخية) لا تعرفه قواميس اللغة القديمة، وأما الحديثة منها فيعرفها:

- «بحث أو مذهب مبنيّ على اعتبارات تاريخيّة (تاريخانيَّة ماركسيّة). والمفرد: (تاريخي)، يعرف على أنه:
- اسم منسوب إلى تاريخ: «واقعة تاريخيَّة» جَمْعيَّة تاريخيَّة: جمعية تُعنى بدراسة التاريخ- دراسة تاريخيَّة: دراسة أساسها ومحورها التاريخ.

- المادِّيَّة التَّاريخيَّة: نظريّة ماركسيّة، تعتبر الأوضاع المادِّيّة الاقتصاديّة هي الأساس الذي تنشأ عليه الأوضاع والأفكار الاجتماعيّة والسياسيّة»[1].

هذا من خلال القواميس المعاصرة. ولي ملحظ في التعريف الأخير السابق، إذ يلفت انتباهنا إلى ربطه بين البيئة والفكر، فيجعل البيئة سابقة للفكر وأساسا له، ويعُدّ الفكر منتجا للبيئة. وهذا كما هو معلوم قربه من الماركسية، فهو معبر جدا عما سيتكشف في الصفحات القادمة من حال المدرسة التاريخية.

وإن كان الأصل في المعنى اللغوي أن يؤخذ من أصل الكلمة لغويا، إلا أن مثل هذه المصطلحات الفكرية الحديثة لا يفيد الجذر اللغوي في تعريفها، فتأخذ بعض قواميس اللغة الفكرة من المصطلح ولو تقريبيا، لمجرد التعريف، لذا فإن ما ذكرته لا يعني أنه تعريف لغوي بحت.

التعريف المصطلحي

معنى التاريخية في المصطلح يعدّ امتدادا للمعنى اللغوي الأخير السابق، ومؤكدا له، يقول جميل صلبيا: «التاريخية: هي القول: إن الأمور الحاضرة ناشئة عن التطور التاريخي، ويطلق هذا اللفظ أيضا على المذهب القائل: إنَّ اللغة، والحق، والأخلاق، ناشئة عن إبداع جماعي، لا شعوري، ولا إرادي... ويرى أصحاب هذا المذهب أيضا، أننا لا نستطيع أن نحكم على الأفكار والحوادث إلا بالنسبة إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه، لا بالنسبة إلى قيمتها الذاتية لا غير.

ومن العلماء من يعُدّ فيكو ١٦٦٨- ١٧٤٤مؤسس هذا العلم، وجاء بعده: مونتسكيو، وتورغو، وفولتير، وغيزو، ولسنغ، وهردر، وهجل»[2].

ويقول محمد أركون: «مفهوم التاريخية: كانت الكلمة قد ظهرت للمرة الأولى -حسب قاموس لاروس الكبير للغة الفرنسية- في مجلة نقد critique وذلك في ١٨٧٢/٤/٦،ص٢٠٩. ومفهوم التاريخية عند تورين: التاريخية بصفتها المقدرة التي يتمتع بها كل مجتمع في إنتاج حقله الاجتماعي والثقافي الخاص به، ووسطه التاريخي الخاص به أيضا»[3].

لو تأملنا التعريفين السابقين للتاريخية، لرأيناها تتجاوز المضمون اللغوي لتعم كل شيء، فالحق والأخلاق والقيم والثقافة، كلها إبداعات ومنتجات بشرية، وقد يكون هذا الأمر سائغا من بعض

---

١) معجم اللغة العربية المعاصرة: ١/ ٨٣. وانظر: المعجم الوسيط: ٢/ ٨٥٨. مادة: (أرخ).

٢) المعجم الفلسفي- جميل صليبا: ٢٢٩/١.

٣) الفكر الإسلامي قراءة علمية- محمد أركون: ١١٦.

الجوانب، فبيئة الإنسان توحي له بكثير من الأفكار والاختراعات التي يكتسبها من ممارسته وانغماسه في البيئة.

إلا أننا لم نلحظ في التعريف أي تفريق بين مكونات ثقافة الإنسان، بين ما هو دين أو معتقد، وما هو غير ذلك. فالمجتمعات قديما وحديثا لم تكن يوما ما بغير دين، مهما كان هذا الدين، ولما كان هذا البحث يخص القرآن الكريم، وهو محور الدين الإسلامي، فلا بد أن يكون حسب التعريف كذلك منتجا بشريا، لا يتحلى بالقداسة التي يؤمن بها أتباعه. وقد أكد هذا الفهم رواد هذا الفكر.

يقول أركون: «إن الخطاب الإسلامي المعاصر لم يتوصل حتى الآن إلى التمييز بين الأسطورة والتاريخ... في الواقع، ليس من الإنصاف القول بأنه يجهل التاريخ. ولكنه لا يزال بعيدا جدا عن تاريخانية القرن التاسع عشر الأوروبية، التي توصلت إلى تهميش العامل الديني والروحي المتعالي، وحتى طرده نهائيا من ساحة المجتمع، واعتباره يمثل إحدى سمات المجتمعات البدائية»[4].

ويقول: صادق العظم: «إن الدين بديل خيالي عن العلم، ولكن تنشأ المشكلة عندما يدعي الدين لنفسه ولمعتقداته نوعا من الصدق، لا يمكن لأي بديل خيالي أن يتصف به، إن محاولة طمس معالم النزاع بين الدين والعلم ليست إلا محاولة يائسة للدفاع عن الدين»[5].

ويقول العظم أيضا: «إن الغيبيات والملائكة والصلوات والمعجزات والجن، تؤلف جزءا لا يتجزأ من التعليل الديني لنشأة الكون وطبيعته. كذلك الأمر بالنسبة لتاريخ الإنسان ومصيره. أما النظرة العلمية فقد عبر عنها أحسن تعبير فيلسوف وعالم رياضيات آخر (لابلاس)، عندما قدم كتابه: (نظام الكون) هدية إلى نابليون فسأله الإمبراطور: وما المكان الذي يحتله الله في نظامك؟ فأجاب لابلاس: الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي.

فهل من عجب إذن أن نسمع نيتشه يعلن في القرن الماضي أن الله قد مات، وهل باستطاعتنا أن ننكر أن الإله الذي مات في أوروبا، بدأ يحتضر في كل مكان تحت وقع تأثير المعرفة العلمية»[6].

إن كلمة: (الأساطير) التي يذكرها رجال المدرسة التاريخية، يقصدون بها كل غيبي؛ لأنه لا يقاس في المختبر، ثم إنهم صرحوا كما ظهر آنفا بأن العقائد بكافة مفرداتها قد تجاوزها التاريخ؛ لأنها إنتاج بشري مفيد لزمانها، وطالما تغير الزمان وتغيرت البيئة، فينبغي أن يتغير كل شيء ثقافي، وفي مقدمته

---

٤) المرجع السابق: ٦٨.

٥) نقد الفكر الديني – صادق جلال العظم: ٢٤.

٦) نقد الفكر الديني- صادق جلال العظم: ٢٧.

الدين، كونه –حسب مذهبهم– عائقا في وجه التقدم ونجاح الإنسان.

وفي الصفحات القادمة سنرى مدى نجاح المنهجية التي سلكها التاريخيون في تحليل القرآن الكريم وتقييمه، ومحاولات إخضاعه لهذه التاريخية.

المقصد الثاني: أثر البيئة في المدرسة التاريخية

وما يهم في هذا البحث، دراسة هذا المقصد من خلال البيئة الغربية، وبيئة القرآن الكريم.

أولا: المدرسة التاريخية في البيئة الغربية

ملابسات نشأة المدرسة التاريخية في الغرب مشهورة، فإنها ولدت بعد مخاض صعب مثلته العصور الوسطى، فهي السبب الرئيس في ميلاد المدرسة التاريخية وتألقها، والعصور الوسطى يصعب في هذا البحث الاسترسال في الحديث عنها، لطولها وكثرة أحداثها، ولكنها باختصار:

هي تلك الفترة الزمنية التي بدأت منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية بيد الجرمان في القرن الخامس الميلادي، حتى فترة عصر النهضة. على اختلاف في نهاية العصور الوسطى حسب الظروف من بلد لآخر. وتسمى عصور الظلام (DARK AGES) أو الألف سنة الهمجية، وذلك بسبب التخلف الذي عم كل مظاهر الحياة الاقتصادية والصناعية والعلمية والفقر والاقتتال، وظهور النظام الإقطاعي الظالم، وانحطاط شديد في الثقافة الدينية، التي صارت أكثر معتقداتها تعتمد على أساطير لا علاقة لها بالله سبحانه. في هذه الحقبة من الزمن اكتملت سيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور، حتى على الملوك والأمراء، وسلكت أساليب عنيفة لفرض آرائها، واستئصال الآخرين بأشد العقوبات من قتل وحرق وتعذيب وسجن، وتتبعت سرائر الخلق بما عرف بمحاكم التفتيش، وعندما حاول بعض المصلحين أن يقترح بعض الإصلاحات مثل يوحنا هوس في كنيسة روما، انعقد مجمع مؤلف من ١٥٠ أسقفا، و ١٨٠٠ رجل دين، وقرر المجمع إحراق يوحنا وبعض أتباعه. حتى علماء الطبيعة أمثال جاليليو، لم يكن حالهم أحسن من يوحنا، فحكمت باسم المسيح، وفرضت الإتاوات والضرائب الباهظة، واغتصبوا حق الله، فباعوا صكوك الغفران المشهورة، فأصبح كبار المجرمين يفعلون الموبقات، ويشترون صكوكا تسقط الآثام، وتضمن لهم الجنان[7].

إذا اتضح أن حال أوروبا كان مؤهلا لاستقبال المدرسة التاريخية؛ فهي بالنسبة لهم منجاة مما

---

٧) راجع ما ذكر حول العصور الوسطى في: تاريخ أوربا في العصور الوسطى– سعيد عبد الفتاح عاشور: ٧ وما بعدها. وتاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: ١٨٥. محاضرات في النصرانية– محمد أبو زهرة: ١٦٧ وما بعدها. مجلة البيان: ع١٩/٧٣. الإمارات. وموقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) على الشبكة العنكبوتية.

يعانون. إلا أن المقدس في أوربا تلك الفترة ولا يزال، يحتاج منا لبعض التفصيل، نظرا لضرورة المقارنة فيما بعد بحال القرآن الكريم. ولا نريد التوسع بالمقدس، وسأكتفي بالحديث عن: الله، الكتاب، الرسول.

الله في الكتاب المقدس:

صورة الإله في الكتاب المقدس، لا تعبر عن الإله المعهود حسب الثقافة الإسلامية في كلا الكتابين:

ففي التوراة المعاصرة:

الإله يستثار ويغضب بطريقة يخرج فيها عن طوره، ويأمر أوامر قاسية، مما اضطر رسوله موسى أن يطلب من إلهه التراجع عن هذا الموقف غير اللائق به، وذكره بوعوده القديمة، فندم الرب:

ففي التوراة: «قال الرب لموسى رأيت هذا الشعب، وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم، وأفنيهم فأصيرك شعبا عظيما. فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال: لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حموّ غضبك واندم على الشر بشعبك... فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه»[8].

وفي التوراة يعقوب يصارع ربه ويغلبه، وينتزع منه المباركة بالقوة[9]. والأغرب من هذا أن الإله نفسه يأمر رسوله هوشع بالزنى[10].

فإذا كان الإله بهذا الشكل: يأمر بالزنى، ويصارع البشر فيهزم! وينسى عهوده، ويستثار فيخطئ، فعندئذ تصحيح موسى له لا غبار عليه، وهكذا يكون قد فتح الباب للبشر ليدلوا بدلوهم في كلام الله؛ لأن كلام الله لم يعد مقدسا، وبالتالي فتح (الكتاب المقدس) الباب لنقد التاريخية وغيرها.

أما الرسول كما تصوره التوراة: فالنبي يعقوب (إسرائيل)، لم يعبد الله فلعنه: «وأنت لم تدعني يا يعقوب حتى تتعب من أجلي يا إسرائيل... لقد استخدمتني بخطاياك وأتعبتني بإثمانك... فدنستُ

٨) التوراة- سفر الخروج: ٣٢/٩-١٤.

٩) انظر: التوراة – تكوين ٣٢/ ٢٢ – ٣١.

١٠) انظر: التوراة – هوشع ١/ ١ – ٧.

رؤساء القدس ودفعت يعقوب إلى اللعن وإسرائيل إلى الشتائم»[11].

وكذلك موسى وهارون لم يكونا مؤمنين فحرمهما الله من الأرض المقدسة: «فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل، لذلك لا تُدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها»[12].

ولوط ابن أخي إبراهيم -عليهما السلام- يزني بابنتيه[13]. وداود يغتصب زوجة أحد قادة جنده (أوريا الحثي)[14]. وسليمان رجل جنس وعشق يتغزل بحبيبته ابتداء من شعرها وخدها ونحرها إلى ثدييها وبطنها وسرتها، وهي كذلك تتغزل بكل هذا منه[15]. فالرسول لم يعد مقدسا، وتجرُّ المدرسة التاريخية مسوّغ.

أما الكتاب: فإن التوراة المعاصرة، لن تجد لها ما يدل على أنه كتاب الله، فإن كتاب الله لا يثبت بالادعاء، فلا بد أن يكون الرسول قد ثبتت رسالته بالإعجاز، ونقل الكتاب محفوظا بالتواتر، وعدم وجود تناقض في الكتاب. وهذه الأشياء لا يستطيع اليهود إثبات أي شيء منها على الإطلاق، حتى الرسول موسى لا يستطيعون إثبات وجوده. ومن فضل القرآن عليهم أنه نصّ على رسالة موسى عليه السلام وهو الدليل الوحيد.

إذا ما يخص التوراة والثقافة اليهودية لا يوجد مقدس ثابت بالدليل، والدليل يثبت العكس. لذا لن يكون صدام المدرسة التاريخية محتدما مع الثقافة اليهودية، ولو اصطدمت فستخسر الثقافة اليهودية الرهان لما تعانيه من ضعف.

وعندما أتحدث عن التوراة فهذا لا يعني أنني أتحدث عن اليهود فقط، فالتوراة كتاب اليهود، وهو الأساس الأول عند النصارى، والإنجيل متمم له. وكل ما قيل عن التوراة، فهو يخص النصارى كذلك.

- أما الكتاب المقدس الخاص بالنصارى (الإنجيل):

فمع الأسف الشديد، لا يوجد على الكوكب ما يسمى إنجيل عيسى عليه السلام، والموجود أناجيل أربعة: متى ويوحنا ولوقا ومرقس، وهي أقرب إلى كتب تاريخية تتحدث عن فترة عيسى عليه السلام، وليس

---

١١) التوراة - أشعيا ٤٣/ ٢٢ - ٢٨.

١٢) التوراة - عدد ٢٠/ ١٢ - ١٣.

١٣) انظر: التوراة - تكوين ١٩/ ٣٠ - ٣٧.

١٤) انظر: التوراة - صموئيل الثاني ١١/ ١ - ١٣.

١٥) التوراة - نشيد الإنشاد بتمامه.

لديها أي إثبات على أنها كلام الله، وهذه الحقيقة ليست خافية على الكثير من علماء الغرب. بل إن لوقا يصرح بأنه يكتب التاريخ من ذاكرته فيقول:

«إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا. كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة. رأيت أنا أيضا -إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق- أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس. لتعرف صحة الكلام الذي علمت به»[16].

ثم بمجرد أن صار للإله الثالوثي ولد، دخلنا في البشرية، وهذا الإله غضب على البشر بسبب ذنب أبيهم، وهم لا ذنب لهم[17]، ولم يتصالح مع خصومه إلا بتضحيته بابنه بكره ووحيده[18]. وقبل أن يصلب يبصقون في وجهه ويلكمونه ويلطمونه[19]. وعندما تحصل هذه الإهانات لابن الله، يستهجن الإنسان هذه العقائد. وكذلك يستهجن غضب الإله على البشرية بمن فيها من صالحين وطالحين بسبب معصية آدم. كما أن ابن الله يختتن في يومه الثامن[20]، والختان يحتاجه الإنسان لنقص فيه، ويستغني الله عن أي حاجة، وابن الله في الأصل من جنس أبيه، وفي باب العقائد لا يمكن تبرير تقطيع الإله وإتلاف أجزاء منه. قد يقال: لعيسى طبيعتان لاهوتية وناسوتية، إلا أن هذا يصعب فهمه حتى على صاحب هذه العقيدة.

كما أن قول عيسى عليه السلام في الإنجيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»[21]. قد أطلق يد التاريخية في كل ما هو خارج الكنيسة. والكلام كثير فيما يخص التوراة والإنجيل، والمآخذ عليهما قد صنفت فيها كتب فلا داعي للاسترسال هنا.

وبغض النظر عن صحة الكتابين، فإن هذه التعاليم المبثوثة فيهما بما فيها من إشكالات كثيرة جدا، جعلت موقف الغرب ضعيفا أمام انتقاد الكتاب المقدس. فكان هذا من صالح التاريخية.

ولو لاحظنا أن ما سبق من كلام يعم ما يقرب من مليار ونصف المليار إنسان، ولو ضممنا إليهم ما يعتقده أهل الهند والصين وباقي العالم من غير المسلمين، ونظرنا في دياناتهم ومقدساتهم، لرأينا العجب العجاب مما يسمى آلهة، وقد يكون حجرا أو شجرا أو نهرا أو بقرة أو عضوا في إنسان،

---

١٦) إنجيل لوقا من بدايته.

١٧) انظر: رسالة بولس إلى أهل رومية: ٥/١-١١.

١٨) انظر: إنجيل مرقس: ١٠/٤٥. وإنجيل يوحنا: ٣/١٨-١٩.

١٩) انظر: إنجيل متى: ٢٧/٣١. و ٢٦/٦٧-٦٨.

٢٠) انظر: إنجيل لوقا: ٢/ ٢١.

٢١) إنجيل مرقس: ١٢/١٧.

وأنواعا كثيرة، وتعاليم بشرية بحتة، كل هذه الأمور تجعل الناس يرحبون بالتاريخية دون غضاضة.

والنتيجة التي أريد أن أصل إليها هي: إن أكثر أهل هذا الكوكب قد شُوه عنده لفظ المقدس، ولا يستطيع أن يثبت أن ما لديه مقدس. فإذا كان الحال هكذا، فلن يرى في التاريخية ما يهدد مقدساته حسب فهمه للمقدس؛ ومن جهة أخرى فإن أكثر تلك الأديان فلسفية أخلاقية في طبيعتها، لا تحمل كثيرا من التشريعات. إذا ليس غريبا أن تتألق التاريخية في تلك الربوع، فهي بيئة مناسبة لتنبت فيها، وتتطاول أغصانها، وهذا ما حصل.

ثانيا: المدرسة التاريخية في البيئة القرآنية

لقد ناقش البحث بيئة المدرسة التاريخية في الغرب من خلال: البيئة، الله، الرسول، الكتاب. وسيمضي البحث هنا بنفس الخطوات.

أما من حيث بيئة القرآن الكريم وأثره فيها:

ففي فترة العصور الوسطى سار الغرب على طريقة دينهم وكنيستهم، وبنفس الفترة سار المسلمون على طريقة قرآنهم ومسجدهم، فكان من نتائج هذا أن وصل الغرب إلى أقصى درجات التخلف والجهل، وانتقل العرب من كونهم قبائل ترعى في الجزيرة العربية، إلى تأسيس أول نظام عالمي من البحر إلى البحر. فحكموا مشارق الأرض ومغاربها، برقي وتقدم علمي، وبأعدل نظام عالمي منبثق من دينهم الحنيف!! فالنتائج كانت عكسية بين الفريقين، والمؤثر واحد هو الدين. فدين الكنيسة أدى إلى إهلاك الحرث والنسل، وانتشار الجهل والتخلف، بينما دين القرآن أدى إلى إزالة الفقر والتخلف والجهل، ونشر راية الإسلام، في مشار الأرض ومغاربها، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن دين الكنيسة مختلف في آثاره على الشعوب عن دين القرآن والمسجد. فالأول قيل فيه: الدين أفيون الشعوب، وهي مقولة سليمة قيلت في تلك الديار. والثاني حياة الشعوب، وهو الدين في ديار وبيئة المسلمين. فإذا ثبت الفرق بين أثر كل دين على بيئته، صار قياس أحدهما على الآخر باطلا، فلا قياس مع الفارق.

- الله كما يصوره القرآن الكريم

الله في القرآن الكريم إله العالمين، خالق الإنسان والأكوان، كلمته كانت وستبقى هي العليا، عظيم في حكمته، قاهر في قوته، عادل في حكمه، بصير بالناس، سميع لهم، وغير ذلك من صفات الكمال التي تليق بجلاله. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

الله في الشريعة الإسلامية لم يَخلق خلقه عبثا، بل لحكمة يتابعها ويرعاها سبحانه، وقد رتب على الحياة الدنيا الحياة الآخرة. قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧]. وقال: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} [القيامة: ٣٦ - ٤٠]

وبين حكمته من الخلق فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فالله في القرآن أحَدٌ لم يلد ولم يولد، ولا ينام، ولا يستثار فيتكلم بما يندم عليه، ولا يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا بالظلم لأحد من خلقه. ولا يحاسب الأبناء بذنوب الآباء كما في التوراة والإنجيل. ولا يحاسب أحدا من خلقه ما لم يُقم عليه الحجة والبرهان القاطع للعذر، قال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء:١٥].

- الكتاب (القرآن)

القرآن في الشريعة الإسلامية منزل من عند الله سبحانه، هو كلام الله، نزله على رسوله محمد ﷺ، وأيد رسوله بالمعجزة، لتكون دليلا على أنه رسول من عند الله، ونُقل إلينا هذا القرآن كما أملاه الرسول ﷺ على كتبة الوحي، بالتواتر القاطع بصحة القرآن الكريم. وهذا الكتاب لم يأته، ولن يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ٤١، ٤٢] {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]

وقد أثبت العلم الغربي الكثير مما جاء في القرآن، وهو مذكور عندنا قبل ١٤٠٠ سنة. بينما أثبت هؤلاء العلماء وجود أخطاء علمية في التوراة والإنجيل[22]. وقد أُلفت في إعجاز القرآن الكريم الكثير من الكتب، تتناول جوانب متعددة من إعجازه ولطائفه.

وقد حكم هذا القرآن مشارق الأرض ومغاربها، أكثر من ألف سنة، كانت الأيام الذهبية لهذا الكوكب. قال سعد عبد الفتاح عاشور: «أجمع الباحثون أن الحضارة الإسلامية كانت أعظم حضارة

٢٢) راجع كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث- موريس بوكاي.

شهدها العالم في العصور الوسطى»[23]. كما أن أثر الحضارة الإسلامية في النهضة الأوربية لا يخفى على الباحثين.

- أما الرسول محمد صلى الله عليه وسلم:

فقد ثبتت رسالته بالإعجاز الدال على صدقه، وبيننا وبينه السند المتواتر الدال على وجوده، وعلى صحة القرآن الذي جاء به، وقد عرف الشرق والغرب عبقريته وحكمته وعدله، وقد أنصفه الكثير من المستشرقين وألفوا في ذلك كتبا.

وبالتالي لم تجد المدرسة التاريخية شيئا في (الله) في أحكامه أو صفاته، لتضع من نفسها حكما على تصرفاته وأقواله، ولتزينها بميزان الإنسان الناقص، فهي أمام الإله الحق، الكامل، المنزه عن كل نقص وعيب.

ولم تجد التاريخية في القرآن شيئا يدل على بشريته وتناقضه، وانقضاء حكمة تعاليمه وأحكامه، وما قالته في هذا المجال، لم يصمد أمام البحث العلمي الجاد. وسيناقش البحث شيئا مما قالوه قريبا.

هذا مع ملاحظة فارق مهم وهو عالمية الإسلام، فالله في الإسلام إله العالمين، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢]. والقرآن هدى لكل الناس، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: ١٨٥]. والرسول رسول العالمين، قال تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]. أما الرسالات من قبل، فكانت في قومها خاصة، ولم تكن عالمية، ومن قال غير ذلك يعوزه الدليل.

ولهذا الكلام أثر على التاريخية، فالرسالات السابقة تشريعاتها لم تأت لتبقى أو تعم، وهذا يشد عضد التاريخية من بعض الجوانب، أما القرآن فقد جاء ليبقى، وهو هداية للكوكب كله زمانا ومكانا.

إذا فالبيئة الغربية بكل ما فيها تختلف اختلافا جذريا عن البيئة القرآنية، فالنتائج متعاكسة في بيئة الفريقين، وفي قدسية الإله، والكتاب، والرسول. إذًا كيف تم القياس؟ وكيف تُرحّل أفكار لاقت رواجا في الغرب، إلى بيئة غريبة عنها لم تعان مما عاناه الآخرون؟ ولماذا يُحكم على الدين الإسلامي وأهله بنفس حكم أولئك؟ هذا منطق غير سليم لا يتبناه باحث متجرد.

المطلب الثاني: أهم مرتكزات المدرسة التاريخية ومدى انطباقها على القرآن الكريم

٢٣) تاريخ أوربا في العصور الوسطى- سعد عبد الفتاح عاشور: ١٠٥. وراجع: أثر الحضارة الإسلامية على الشرق والغرب، جوستاف لوبون نموذجا: ٧٩ وما بعدها.

تمهيد: للمدرسة التاريخية مرتكزات قامت عليها، لا بد من الحديث عنها، فهي التي نحاول أن ندرس تطبيقها على القرآن الكريم، إلا أنه لا بد قبل الحديث عن مرتكزات التاريخية، وكيفية تطبيقها على القرآن الكريم، أن نُعرّف القرآن الكريم محل البحث، بالطريقة التي تتناسب مع البحث، وأن نعرف (الوحي) الذي نزل بالقرآن الكريم.

أولا: تعريف القرآن الكريم مقارنة بالتاريخية

للقرآن الكريم تعاريف كثيرة، ليست متناقضة، وإنما الخلاف بين التوسع والاختصار، ومن أهمها أن القرآن هو:

اللفظ المنزل على النبي ﷺ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. ومنهم من عرفه بكلمة واحدة: الإعجاز. وآخرون بكلمتين: الإنزال والإعجاز. والتعريف المشهور: الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته[24].

والمطلوب من هذه التعاريف ليس أخصرها، وإنما أكثرها وضوحا وشرحا نظرا لطبيعة البحث والمحاورة، لذلك نختار الأخير مع إضافة كلمة (محمد) لتمييزه عن باقي الأنبياء، فيصبح هكذا:

الكلام المعجز المنزل على النبي محمد ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته.

وللعلماء في تفصيل هذا التعريف، وما يلزمه ويتعلق به من مباحث كلام يطول، سأختار منه ما يناسب البحث فأقول:

القرآن كلام الله خالق الأكوان سبحانه، المعجز، المعصوم من الخطأ، ومن أي ما يمكن أن يضر بالتنزيه، أنزله بالوحي عن طريق المَلَك جبريل عليه السلام، على رسوله للعالمين محمد ﷺ ، في حال اليقظة كاملا، للعالمين بشيرا ونذيرا، أملاه النبي ﷺ كاملا على كتبة الوحي وهم بالعشرات، ثم جمعه أبو بكر رضي الله عنه كاملا جمعا علنيا باتفاق وإجماع من كل الصحابة، ثم جمعه عثمان رضي الله عنه جمعا علنيا مرتب الآيات والسور، باتفاق وإجماع من كل الصحابة، على الهيئة التي بين أيدينا اليوم. وأن كل ما في القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد نُقل إلينا كما هو من غير زيادة أو نقصان، نقلا متصلا متواترا لا يحتمل الخطأ، وفي قراءته عبادة لله سبحانه[25]. ولن أشرح عن القرآن أكثر من هذا؛ وسيأتي الباقي في أثناء المحاورة مع التاريخية تحت العناوين القادمة.

---

٢٤) راجع التعاريف في: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ١٩. وانظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم: ٤٦٣. ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ٢١. والنبأ العظيم لمحمد بن عبد الله دراز: ٤٣.

٢٥) راجع: المراجع السابقة، وغيرها، فهذه المعلومات متكررة في كتب علوم القرآن وأصول الفقه والتفسير.

إلا أن التاريخية لا تنظر إلى القرآن الكريم بهذه العصمة والحفظ أبدا، يقول هشام جعيط: «وسواء كان القرآن كلام الله المنزل على محمد، كما هو المعتقد الإسلامي، أو كلام النبي معتقدا أنه موحى به إليه، فهو منغمس في تاريخية الدعوة؛ لأن النبي أفصح به إلى محيطه في مكة في فترة معينة من الزمن، فيتخذ القرآن طابعا موضوعيا تاريخيا، ونفس الشيء بالنسبة للفترة المدنية... ولا ندري فعلا: هل وقعت زيادات في صلب النص؛ أي إقحام كلمات أو عبارات لم يُحِ بها النبي؟ أو حصل أسقاط بعض العبارات نسيت أو لم تسجل؟ رأيي أن هذا محتمل في حالات قليلة»[26].

فهو هنا لا يرى القرآن وحيا، بل يراه كأي موضوع بشري، حدث في زمن محدد، كما أنه يجيز تحريف القرآن الكريم ويشكك في حفظه. وهذا متعارض مع ما ذكرته من عقيدة المسلمين في القرآن الكريم. ومع ما ثبت من صحة نقله عبر الأجيال، رواية وكتابة. وفي مكان آخر لم يجز التحريف فقط، بل أثبته قائلا عن القرآن: «مفهوم وعبارة الشرك في صيغه المتعددة: مشرك، مشركين، شركاء... إلخ. قليلا ما نجدها في الفترة الأولى، مرة في سورة (الطور) وقد نزلت بعد (النجم)، ومرة في (القلم) قبل النجم، والآية إما فلتة، وإما منضافة»[27].

ويؤكد الجابري ما جاء في حديث الجعيط قائلا: «وخلاصة الأمر أنه ليس ثمة أدلة قاطعة على حدوث زيادة أو نقصان في القرآن منذ جمْعه زمن عثمان. أما قبل ذلك فالقرآن كان مفرقا في صحف، وفي صدور الصحابة، ومن المؤكد أن ما كان يتوفر عليه هذا الصحابي أو ذاك من القرآن -مكتوبا أو محفوظا- كان يختلف عما كان عند غيره، كمّا وترتيبا، ومن الجائز أن تحدث أخطاء حين جمعه، زمن عثمان أو قبل ذلك، فالذين تولوا هذه المهمة لم يكونوا معصومين»[28].

ونحن لا نقول بعصمة أي صحابي، وإنما نقول بصحة القرآن، لكونه منقولا بالخبر المتواتر، الذي يرويه جمع عن جمع من مبتدئه إلى منتهاه، ويكون مستند الرواية إلى الحس، بحيث تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، وشرح التواتر ليس هنا مكانه، وإنما في كتب أصول الفقه والحديث، وللعلم فإن التواتر حجة عقلية لا يردها العقل السيلم، وتلزم الجميع، وليس المسلمين فحسب.

وما أجازه الجابري من حدوث أخطاء غير مبرر، فالقرآن أملاه الرسول كاملا على كتبة الوحي، وكان جبريل ينزل في كل عام مرة في رمضان، يعارض القرآن مع الرسولﷺ، وفي العام الذي توفي فيه نزل عليه جبريل مرتين، كل هذا يلتقي بعده الرسول مع كتبة الوحي، والحفظة من الصحابة جم غفير، والمكتوب كذلك، ويبقى المكتوب في ذمة المحفوظ، وهو المنقول بالتواتر حضورا وسماعا من فم

---

٢٦) تاريخية الدعوة المحمدية في مكة- هشام جعيط:٢٢-٢٣.

٢٧) المرجع السابق:٢٠٠.

٢٨) مدخل إلى القرآن الكريم – محمد عابد الجابري: ٢٣٢.

الرسول ﷺ. لا من فم غيره!! وكان لجمع القرآن شروط قاسية مشرّفة، يمكن الرجوع إليها في كتب علوم القرآن الكريم[29]، كما أن غيرة الصحابة على كتاب الله، لا تترك فرصة لأي سهو أو خطأ أو تلاعب، ومن يعرف أحوال الصحابة، يعرف أن هذا الخلل يستحيل أن يكون وفي الصحابة عرق ينبض.

ثانيا: تعريف الوحي مقارنة بالتاريخية

والحديث عن الوحي هو الحديث عن الدين، فهو الحلقة الواصلة بين الله ورسله، فإن آمنا به أثبتنا الله والرسول والشرع، وإن لم نؤمن به فلا دين ولا قداسة لشيء من ذلك. وفي هذا البحث -للاختصار- سأتحدث عن الوحي إلى رسول الله ﷺ تحديدا، والوحي بالقرآن تحديدا.

قال الزرقاني: «الوحي في لسان الشرع أن يُعلِم الله تعالى من اصطفاه من عباده، كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرّية خفيّة غير معتادة للبشر. ومنه ما يكون بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام وهو ملَك كريم. وذلك النوع هو أشهر الأنواع وأكثرها. ووحي القرآن كله من هذا القبيل، وهو المصطلح عليه بالوحي الجلي. قال تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]

ثم إنّ ملَك الوحي يهبط هو الآخر على أساليب شتى: فتارة يظهر للرسول في صورته الحقيقية الملكية. وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه. وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى. وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه، وذلك أشد أنواعه. وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دويّ النحل، لكنهم لا يفقهون كلاما، ولا يفقهون حديثا. أما هو صلوات الله وسلامه عليه فإنه يسمع ويعي ما يوحى إليه، ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء، ومن غير شك ولا ارتياب. فإذا انجلى عنه الوحي، وجد ما أوحي إليه حاضرا في ذاكرته منتقشا في حافظته كأنما كتب في قلبه كتابة»[30]. قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: ٣ - ٥].

إلا أن للتاريخيين رأيا آخر. يقول حسن حنفي: «إن الوحي نفسه موجود في زمان ومكان معينين، وبالتالي فهو أيضا قد تحول في لحظة الإعلان إلى حضارة، أي إلى مفهوم البشري يختلف

---

٢٩) راجع: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ٢٣٣ وما بعدها. والإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ٢٠٢ وما بعدها و٢٥٨ وما بعدها. ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ٢٣٩، وما بعدها. والإحكام في أصول الأحكام للآمدي: ٢/ ١٣، وما بعدها. والموافقات للشاطبي: ٤/ ٣١١.

٣٠) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ٦٣. وما بعدها. وانظر: مباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح: ١٧. وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة الدينوري: ٢٦٧. وفضائل القرآن للنسائي: ٥٧. والنبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز: ٩٩. والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة: ٦٠.

باختلاف البشر»[31]. وله قول أوضح: «العلمانية إذن هي أساس الوحي، فالوحي علماني في جوهره، والدينية طارئة عليه من صنع التاريخ، تظهر في لحظات تخلف المجتمعات، وتوقفها عن التطور»[32].

ويقول نصر حامد أبو زيد: «إن تفسير النبوة اعتمادا على مفهوم الخيال معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة، انتقال يتم من خلال فاعلية المخيلة الإنسانية التي تكون في الأنبياء... فإن الأنبياء والشعراء والعارفين، قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية المخيلة في اليقظة والنوم على السواء... وفي ظل هذا التصور لا تكون النبوة ظاهرة فوقية مفارقة، بل تصبح قابلة للفهم والاستيعاب»[33].

إذن يرى حنفي أن الوحي منتوج بشري، يختلف حسب البيئة والتاريخ، ويتطور تبعا لذلك، وليس لله أو الرسول علاقة في ذلك. إن الوحي الذي يتكلم عنه حنفي أقرب إلى ما يفعله المنجمون أو ما يُنسب إلى الشعراء أحيانا، وإن كان حتى هذا فأدواته التي تتغير وليس جوهره. والوحي الذي نتحدث عنه، وهو نزول جبريل من عند الله بالتعاليم الإلهية، فهذا لم يسمع به حنفي، إذ الوحي عنده أساسا من العلمانية وليس من الله، وهكذا تفترق التاريخية عن القرآن إلى أقصى الدرجات.

وعلي حرب يعلنها بصراحة: المشكلة لا تحل بإيضاح معنى الأسطورة، كما لا تحل بالقول: «إننا نستلهم القيم الروحية للإسلام، أو إننا لا نهدف إلى نزع صفة الوحي أو القداسة عن النصوص، فكيف نقرأ النصوص قراءة نقدية تاريخية، ونزعم أننا لا ننزع عنها صفة التعالي والقداسة، لا مجال إذا للمداورة والالتفاف، بل الأحرى والأولى مجابهة المشكلة بدلا من الدوران حولها»[34].

هنا يشير حرب إلى قاعدة من قواعد التاريخية، وهي أن النصوص لا يمكن أن تدرس دراسة تاريخية إلا بعد نزع القداسة عنها. وهذا أقصى تباعد بين القرآن المقدس والتاريخية.

وأما حديثهم عن الوحي الذي يأتي بالتخيل، فكلام مرسل لا دليل عليه، فالتخيل الذي يتحدثون عنه يكون مقصودا من المتخيِّل، ساعيا إليه، إلا أن وضع الرسول ﷺ لم يكن كذلك، فالوحي فاجأه ولم يكن أصلا متوقعا في مخيلته، قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [القصص: ٨٦].

---

٣١) التراث والتجديد- حسن حنفي: ١١٤.

٣٢) المرجع السابق: ٦٣. و ١١٦.

٣٣) مفهوم النص – نصر حامد أبو زيد: ٤٩، ٥٢.

٣٤) نقد النص- علي حرب: ٧٧. المركز الثقافي العربي، الغرب، الدار البيضاء، ط٤، ٢٠٠٥.

فهي صريحة في أن النبي ما كان يؤمّل ذلك ولا عُرف عنه هذا قبل الإسلام، كما أن النبوة لا يتمكن منها الإنسان بالتأمل والتخيل؛ لذلك لم يصل إليها الحنفاء، وإنما هي اختيار واصطفاء من الله مدلل عليه بالإعجاز، غير متوقع من الرسول. كما أن التخيل والتأمل، لا يمكن أن يأتي بالعقائد المحكمة، وتفاصيل الأحكام والشرائع المتنوعة، والأخبار والأخلاق، وعلوم متنوعة كثيرة يتشكل منها دين أبهر العقول والألباب وأعجزهم.

وإذا كان الوحي قائما على التخيل، فلماذا انقطع عن الرسول فترة لم ينزل فيها قرآن[35]؟ كما أن التخيلات التي تحرك العقل الباطن كما يقول العلماء، تأتي في النوم والمرض والحمى وفي ظروف غير عادية، والقرآن ذكرت أنه ما جاء إلا يقظة، في تمام العقل والتنبه من الرسول ﷺ ، ويفاجئه أحيانا وهو بين أصحابه، من غير أن يكون هناك أدنى فرصة للتأمل أو تفكر.

أهم مرتكزات المدرسة التاريخية ومدى انطباقها على القرآن الكريم

الركيزة الأولى للتاريخية: النص منتج بشري

القرآن في العقيدة الإسلامية كلام الله المنزّل، وقد سبق التعريف به، إلا أن التاريخية تراه منتجا بشريا لا غير، يقول محمد شحرور: «القرآن حقيقة موضوعية، مادية وتاريخية، لا تخضع لإجماع الأكثرية، حتى ولو كانوا كلهم تقاة، ويخضع لقواعد البحث العلمي، حتى ولو كان الناس كلهم غير تقاة»[36].

ومعنى أنه حقيقة موضوعية ومادة تاريخية، أنه كأي حدث من أحداث التاريخ البشري لا علاقة له بالمقدس. وقد وضح أركون هذا بقوله: «ودون أن نعتبر القرآن كلاماً آتياً من فوق، وإنما فقط كحدث واقعي تماماً، كوقائع الفيزياء والبيولوجيا التي يتكلم عنها العلماء»[37].

ويقول نصر حامد: «وإذا كنا هنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية، فإن هذا التبني لا يقوم على أساس نفعي إيديولوجي يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم على أساس موضوعي يستند إلى حقائق التاريخ، وإلى حقائق النصوص ذاتها»[38].

إن المتأمل في الأقوال السابقة يراها تركتز على:

---

٣٥) كان هذا في أول البعثة، قبيل نزول سورة الضحى.

٣٦) الكتاب والقرآن- محمد شحرور: ٩١.

٣٧) محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي: ٢٨٤.

٣٨) نقد الخطاب الديني- نصر حامد أبو زيد: ١٩٧.

- القرآن حدث تاريخي كوقائع الفيزياء والبيولوجيا يخضع للبحث العلمي
- حقائق التاريخ تدل على بشرية القرآن
- النصوص نفسها في حقيقتها تدل على بشرية القرآن

ولمناقشة النقطة الأولى أقول:

١. أكثر القرآن الكريم عبارة عن عقائد وغيبيات، وقيم وأخلاق، ومثل هذه الأمور لا تراها العين، وإنما يدركها العقل، ويدرك آثارها بقواعده المنطقية التي ترفعه فوق مرتبة الحيوان الذي لا يؤمن إلا بما يرى، ولذلك وصف الله سبحانه المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب فقال: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ٣]. وهذه نقطة جوهرية فارقة بين الإنسان والحيوان، فالمحاكمات العقلية والمنطقية تسمو بالإنسان فيعلم ويؤمن بما لا يرى أحيانا. كما أن هذه الأشياء لا تدخل أنبوب الاختبار، وإنما تدخل العقل، وتناقش بالفكر، وأدواتها الدليل والبرهان.

٢. وفي القرآن الكثير من الأخبار: والأخبار تمتحن بالصدق أو الكذب، وليس بشيء آخر، ومناط هذا الدليل والبرهان والقرائن.

٣. وفي القرآن الكثير من الأحكام الشرعية: والأحكام تختبر بالعدل والحكمة، وليس بالسوائل الكيميائية.

٤. ولا شك أن للبحث العلمي دورا كبيرا فيما يتصل به من علوم، وقد أثبت هذا البحث العلمي إعجاز القرآن في كثير من آياته العلمية، والكتب والأبحاث في هذا مشهورة متداولة. وقد نال الإسلام أعلى رفعة في كل هذه الاختبارات.

وفي مناقشة النقطة الثانية: إن حقائق التاريخ لم تثبت بشرية القرآن الكريم، وإنما أثبتت عالميته وعدله للبشرية، وقد سبق الكلام عن حضارة الإسلام العالمية التي تجاوزت البيئة وقيود النص، وانطلقت في عالميتها تحكم الناس بالعدل والإنصاف. وترتقي به وبالبشرية. كما أنه عبر كل هذا التاريخ، كان القرآن يتحدى أن يأتوا بمثله فعجزا، ولا يزالون عاجزين.

والغريب في النقطة الثالثة: أن يستدل بحقائق النصوص ذاتها على بشرية القرآن الكريم! فهل قوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} [المسد: ١ - ٤] يدل في حقيقته على أن القرآن منتج بشري أم العكس؟ هل من مصلحة محمد أن يُنتج مثل هذه الآيات التي تشهد بجهنم لأبي لهب وزوجته، وهما أحياء ينظران إليه؟ أليست مجازفة كبيرة، إذ قد يؤمن أبو لهب أو زوجته، فكيف يبرر عندها محمد مثل هذه الآيات؟ لقد كان يكفي لأبي لهب أن يتلفظ بالشهادتين ليبطل دين محمد! ولو نفاقا!! لكنه لم يفعل، مع أن

كثيرا من عتاة الكفر أسلموا بعد ذلك، إلا أبا لهب. من الذي كان يعلم هذه الحقيقة، إنه الله عالم الغيب، الذي أنزل هذا القرآن المقدس.

وأيضا الخبر في هذه الآية: {غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} [الروم: ٢ - ٤] هل هو منتج بشري، إن الهزيمة التي لحقت بالروم واحتلال أرضهم من قبل الفرس لم تكن هزيمة شكلية، كان العقل البشري يقول انتهت الروم. وإن قامت فبعد دهر طويل. لكن القرآن قال في أقل من عشر سنين، مما أثار سخرية المشركين، ولكن الأمر تم كما قال تعالى. فهل من مصلحة محمد أن ينتج آية مثل هذه، لو لم يصح الخبر لذهبت كل دعوته وأفكاره بسببها؟ إنها مجازفة كبيرة لا تدل إلا على أن القرآن من عند الله عالم الغيب. وغير هذا كثير من الغيبيات.

وبشكل عام لا يمكن أن يكون القرآن الكريم منتجا بشريا، فإن نظمه ليس معهودا عند العرب، فهو ليس على هيئة الشعر الذي تتفاخر به العرب، ولا غيره مما يعرفون من أساليب الكلام، ولكن جعله نظما خاصا بالقرآن، لدفع ذريعة أن يكون منتجا للبيئة. قال الباقلاني: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد»[39].

لقد أدرك هذه الحقيقة أكبر بلغاء وأعداء الرسول ﷺ، واتضح لهم أن القرآن لا قبل للعرب والعجم بأن يأتوا بمثله. فها هو الوليد بن المغيرة، عندما طلب منه أبو جهل أن ينال من القرآن أجابه: «وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»[40].

إذا عجز علماء بيئة الرسول ﷺ أمام القرآن، وأدركوا أنه ليس من إنتاجهم، فهل من جاء بعدهم أدرى بحالهم؟

ولنأخذ هذا المثال من قرآن منتج بشريا، لنفرق بينه وبين قرآن محمد المقدس. لما سمع مسيلمة الكذاب سورة النازعات وفيها: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا. وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا. وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا. فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا. فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا. يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ. يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ. أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ. فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ

٣٩) إعجاز القرآن للباقلاني: ٣٥.

٤٠) صحيح السيرة النبوية للألباني: ١٥٨.

وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١-١٤]. أراد أن يعارض قرآن محمد بقرآنه فقال: «والزارعات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والحافرات حفرا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر»[41]. يعني هي أكلة ثريد من بداية الزراعة وحتى الأكل، لكنه نسي البهارات! إن في هذا لعبرة.

وهناك نقطة أخرى، وهي أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله، والقرآن باللغة العربية، ومع ذلك عجزوا وهم أهل اللغة واشتهروا بها، وليس لمحمد ﷺ أي شهرة لغوية قبل الرسالة. فطالما أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله وهو بلغتهم، فهذا يعني أن لغتهم لم تؤنسنه، ولم يصبح بشريا، وبقي معجزا إلهيا مقدسا. قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [الإسراء: ٨٨].

إن الأسلوب القرآني بطرح التعاليم كان على عكس ما تتمنى التاريخية، وكأنه كان يحطم ركائزها قبل أن تنشأ بـ ١٢٠٠ سنة. ففي الوقت الذي تتشبث التاريخية بكل أثر تاريخي من اسم لحيوان أو شجرة، أو جبل أو إنسان أو أرض أو ما له علاقة بالأرض والبشر في حقبة تاريخية محددة، نجد القرآن يهمل هذا لدرجة كبيرة جدا، فمن نحو ١٢٠ ألف صحابي في بيئة الرسول ﷺ، لم يذكر سبحانه في القرآن إلا اسما واحدا فقط!! (زيد)، ومن بين مئات الأنبياء والرسل لم يذكر إلا ٢٥ منهم على خلاف في بعضهم، ومن كل من عاند الإسلام، وما أكثرهم وأكثر زعاماتهم- لم يذكر سوى أبا لهب لمرة واحدة، ومن كل قبائل العرب وأفخاذها وبطونها لم يذكر سوى قريش لمرة واحدة، بينما ذكر كلمة الناس: ٢٢٥ مرة. وكلمة العالمين ٧٤ مرة. حتى اسم الرسول محمد ﷺ لم يذكر إلا أربع مرات، بينما ذكر اسم مريم أم عيسى ٣١ مرة، ومع كون عدد الآيات نحو ٦٢٣٦ آية، لم يثبت سبب نزول إلا لقلة قليلة منها. ولم يذكر اسما لجبل، أو قرية عربية، أو صحراء.

حتى أسرة الرسول وأهله، لم يُذكر منهم أحد، لقد كان الرسول منغمسا في صحابته وقومه، يبلغ دين ربه من الصباح إلى المساء، ولكن القرآن أغفل جغرافية التنقلات وبيئتها، وسما بالفكرة فوقها ليعطيها عالميتها.

لقد تعالى الله بكتابه عن كل ما يقيد عالميته وشموله للزمان والمكان، وتهافت التاريخيون لاستكشاف ما أبهمه القرآن، يحصونه عددا ويوظفونه جندا، ومع ما يبدونه من تذمر وهجوم على الروايات الضعيفة، إلا أنهم فيما يتعلق بالبيئة يتعلقون بالأقوال والروايات مهما تهالكت، يتعلقون بخيط العنكبوت، وكأنه حبل متين. فالقرآن يعلو نجمه، وتسطع شمسه، يشق كبد السماء، ليعم بنوره

٤١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للقتيبي: ٢/ ٢٤٥. وانظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس للديار بكري: ٢/ ١٥٨. وشرح الشفا للهروي القاري: ١/ ٥٥٤.

أرجاء الكوكب، تلبية لدعوة الرسول العالمية، بينما تلاحقه التاريخية عبثا، لتجعل من دعوته محلية.

ومما سبق نرى أن المدرسة التاريخية، لا يمكن أن تفيد في تفسير القرآن الكريم، وهي تناقض أصول وجوده، ووجود الوحي الذي جاء به، والرسالة العالمية التي يتطلع إليها.

الركيزة الثانية للتاريخية: النص محدود زمانيا ومكانيا

القرآن في الإسلام هداية للعالمين إلى قيام الساعة، فلا يحده زمان ولا مكان. قال تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف:١٥٨]. لكن المدرسة التاريخية ترى أن القرآن محصور زمانيا ومكانيا في بيئته العربية التاريخية، ولا فرق بين نص مقدس وغير مقدس، بمعنى أن الكل غير مقدس. وبهذا الصدد يقول أركون: «ويمكنني أن أقول بأن المقدس الذي نعيش عليه أو معه اليوم، لا علاقة له بالمقدس الذي كان للعرب في الكعبة قبل الإسلام، ولا حتى بالمقدس السائد أيام النبي؛ لأن أشياء كثيرة تغيرت منذ ذلك الوقت، وإذن ينبغي أن ننظر للمقدس كشيء متحرك»[42].

بينما يطالب أركون بتغيير المقدس حسب البيئة، يضيق حسن حنفي ذرعا بألفاظ العقائد، ويريد التخلص منها، لما تسببه من عجز لغوي فيقول: »يحدث أحيانا عندما تتطور الحضارة، وتمتد وتتسع معانيها أن تضيق بلغتها القديمة الخاصة التي لم تعد قادرة على إيصال أكبر قدر ممكن من المعاني، لأكبر عدد ممكن من الناس. فتنشأ حركة تجديد لغوي، وتسقط فيها الحضارة لغتها القديمة الخاصة، وتضع لغة جديدة أكثر قدرة على التعبير. إن العلوم الأساسية في تراثنا القديم ما زالت تعبر عن نفسها بالألفاظ والمصطلحات التقليدية التي نشأت بها هذه العلوم، والتي تقضي في الوقت نفسه على مضمونها ودلالتها المستقلة، والتي تمنع أيضا إعادة فهمها وتطويرها، يسيطر على هذه اللغة القديمة الألفاظ والمصطلحات الدينية مثل: الله، الرسول، الدين، الجنة، النار، الثواب، العقاب... ومن ثم أصبحت لغة عاجزة عن الأداء»[43].

ثم يضرب حسن حنفي مثالا عمليا كيف يتغير (الله) حسب البيئة فيقول: «إن لفظ (الله) يحتوي على تناقض داخلي في استعماله، باعتباره مادة لغوية لتحديد المعاني أو تصورات، فكل ما نعتقده ثم نعظمه تعويضا عن فقدان يكون في الحس الشعبي هو الله، وكل ما نصبوا إليه ولا نستطيع تحقيقه، فهو أيضا في الشعور الجماهيري هو الله، وكل ما حصلنا على تجربة جمالية قلنا: الله، فالله: لفظ نعبر به عن صرخات الألم، وصيحة الفرح، أي إنه تعبير أدبي أكثر منه وصفا لواقع، والتعبير إنشائي أكثر منه وصفا خبريا... فالله عند الجائع هو الرغيف، وعند المستعبد هو الحرية، وعند

٤٢) مجلة مواقف، مقالة: الإسلام والحداثة- محمد أركون: ص٢٠،ع٥٩-٦٠.

٤٣) التراث والتجديد- حسن حنفي: ١٠٩-١١٠. و١١٥.

المظلوم هو العدل»[44].

نخلص مما سبق إلى أن التاريخية ترى:

١. ضرورة تغير العقائد بتغير البيئة، وبالتالي يمكن أن يتطور معنى: الله فيصبح رغيف خبز مثلا.
٢. الألفاظ القديمة سببت عجزا في اللغة، فلا بد من التخلص منها. فتكون الحرية هي الإسلام مثلا.
٣. لفظ:(الله): ليس خبرا عن غيب ووجود، بل إنشاء لما سيأتي، وهو مجرد تعبير أدبي غير منضبط، يتغير بتغير البيئة.

لا شك أن النظرة التاريخية إلى ألفاظ عقدية امتلأ بها القرآن الكريم، سيعقد الإفادة من التاريخية في التفسير إلى أبعد الحدود. فإذا ألغيت هذه الألفاظ ألغي الدين. إلا أن ما ذكروه غير مبرر أبدا.

فما ذكر في النقطة الأولى من أن تغير البيئة يدعو إلى تغير العقائد، أمر غريب جدا، فما علاقة الإيمان بالملائكة مثلا بتغير البيئة. هل الأسد مثلا زمن فرعون غير الأسد في أيامنا، لماذا لم تضق اللغة ذرعا بأسماء النباتات والأشجار والحيوانات، وضاقت باسم الله وملائكته وجنته وناره؟ مع أن الحيوانات والأشجار مشاركة لنا في الكوكب، والغيبيات أخف منها، فهي غيب نؤمن به ولا يسبب لنا أي إزعاج لغوي أو غير لغوي، وللإيمان بها ضرورات عند المؤمنين لا يُجبر عليها غيرهم.

ثم كيف حصل هذا التطور وعلى أي أساس صار (الله) رغيف خبز؟ هل التاريخية ترى (الله) قابلا للتدوير فصنعت منه شيئا آخر؟ ولماذا الإنسان عبر التاريخ الطويل يأكل الخبز، وبنفس الوقت يؤمن بالله، ولم يكن هناك أي إشكال؟ إن العقل ليجزم بأن من تحول عنده الله إلى رغيف خبز، لم يكن يعرف الله أصلا. ومن كان هذا حاله، لا يستفاد منه في تفسير القرآن الكريم.

وعلى أي أساس يتطور الإسلام بشرائعه وتعاليمه ليصبح هو الحرية؟ لماذا التاريخية تتكلم بكلام لا نعرف له قانونا لغويا ولا علميا ولا قاعدة، ثم تدعي أنها تقيس كل شيء إلى البحث العلمي!! تحت أي علم تنضوي الأقوال السابقة؟ إن العبث باللغة دون قيد، يجعل التاريخية خارج دائرة تفسير القرآن الكريم. وإلا لانعدم الفرق بين التفسير والتحريف، بين التحديث والتغيير.

٤٤) المرجع السابق: ١١٢-١١٣. و١١٥.

ثم إن اللغة العربية تحديدا أقوى لغة في التاريخ، وأدقها، وهي تتطور حسب أصول معلومة وتتفاعل مع الزمان والمكان، ولم نشتك يوما من عجزها، فكيف عرف التاريخيون عجزها؟ وما أجمل ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم عن اللغة العربية في الرد على هذا الاتهام:

«رَمَوني بِعُقـــمٍ في الشَبابِ وَلَيتَني عَقِمتُ فَلَم أَجزَع لِقَولِ عُداتي

فَكَيفَ أَضيقُ اليَومَ عَن وَصفِ آلَةٍ وَتَنسـيقِ أَسماءٍ لِمُـــختَرَعاتِ

أَيُطرِبُكُم مِن جانِبِ الغَربِ ناعِبٌ يُنادي بِوَأدي في رَبيعِ حَياتي»[45]

ثم إذا كانت الحضارات ستتطور، فهل هذا يعني أن ترمي كل شيء كانت عليه؟ أم تتمسك بالثوابت التي حملت الحضارة وستحملها، وتحفظ توازنها، وتطور المتغيرات. وإذا كان القرآن الكريم هو سبب حضارتنا واجتماعنا، فهل تطورها يكون بقتله؟ أم باستلهام المزيد من هدايته المتناسبة مع كل عصر وبيئة؟

ثم إن الألفاظ التي يريد أن يتخلص منها التاريخيون: (الله، الرسول، الملائكة، الجنة، النار، القرآن). هي التي كانت سببا في إيجاد الإنسان على هذا الكوكب. فالله خلق الإنسان ليعرفه ويعبده طمعا بجنته وخوفا من ناره. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦]. وقال بأنه لم يخلق الإنسان سدى بدون حكمة: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]. {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥]

فحتى تفيد التاريخية في تفسير كتاب الله، لا بد من تمكنها من قوانين اللغة وضوابطها، ومن إعادة النظر في كثير من المفاهيم، ولا بد أن تعرف الحكمة أصلا من هذه الكلمات العقدية التي تستنكرها وتستقبحها. ولا بد أن يكون لديها تصور سليم عن الهدف من حياة الإنسان على هذا الكوكب، ومآله بعد موته. إن الكوكب حسب تصور التاريخية لا يطاق، فهو أصلا مليء بالظلم، وينتهي هذا الكوكب وينجو الظالم بظلمه ويموت المظلوم بقهره، وينتهي الجميع إلى تراب، هل هذه هي الحكمة والتطور؟ أم هذا العبث والفساد في الأرض. إن تفسير القرآن الكريم لا بد أن يكون بمقاييس الحكمة والعدل والكمال الذي يليق بجلال الله، وقصده من خلقه.

إن المؤلف (الله) لا يموت في تفسير القرآن الكريم؛ ببساطة لأن القرآن جاء ليعرّف بالمؤلف! والإنسان على الكوكب وُجد ليعرف هذا المؤلف. فكيف تقتله التاريخية، ثم تنفرد بتفسير كتابه. لا بد من التمييز بين المقدس وغير المقدس، قبل الخوض في تفسير القرآن الكريم.

---

٤٥) ديوان حافظ إبراهيم: ٢٥٣.

الركيزة الثالثة للتاريخية: النص الديني تأنسن

القرآن في الإسلام كتاب الله وكلامه، ولا يجوز أن يُنسب إلى غيره، فيجب عند ذكره أن نقول: قال تعالى. وهذا القول في الإسلام على الحقيقة وليس المجاز، والقرآن موجود في اللوح المحفوظ أصلا باللغة العربية قبل أن يتكلم به العرب، قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١، ٢٢]. وبيئته الأولى المحفوظ فيها فوق السماوات في الملأ الأعلى، قبل أن ينزل إلى الأرض. ونزوله على رسول الله ﷺ والعرب، لم يؤثر شيئا في لغته ولا معانيه ولا موضوعاته، ولا أي شيء آخر. فهو نزل بمعنى: حمل منجّما كما هو من مكان إلى مكان. فليس للبشر ولا بيئتهم فيه أي تأثير، لا من قريب ولا من بعيد. قال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} [التوبة: ٦]. فالكلام المسموع هو كلام الله، وإن كان من يلفظه بفمه هو البشر. وقال تعالى: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [الفتح: ١٥].

وكلام الله لا سلطة للإنسان عليه -حتى لو كان رسولا- سوى التبليغ، فالرسول متبع وليس مبتدعا في كلام الله. قال تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]. وقال: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤].

وعندما يفسر المسلم القرآن لا ينبغي أن يغيب عن ذهنه شيء مما ذكرت، ولا أن يتناقض معه، فإن تناقض معه يكون انتقل من التفسير إلى التحريف والتبديل.

إلا أن المدرسة التاريخية تجاوزت الضوابط السابقة، وادعت أن القرآن طالما تكلم به العرب بلغتهم وفي بيئتهم فقد تأنسن، ولم يعد مقدسا، وجاز أن يتعرض للنقد كما لو كان ديوان عنترة، أو بشار بن برد.

قال نصر حامد أبو زيد: «إن النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة، والمصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين؛ لأنها تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة، وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد... التركيز على مصدر النص وقائله فقط إهدار لطبيعة النص ذاته، وإهدار لوظيفته»[46].

والحقيقة لا أعلم منطقا علميا تم الاعتماد عليه عند نصر، فبأي دليل يصبح كلام الله منتجا

٤٦) نقد الخطاب الديني – نصر حامد أبو زيد: ٨٤. و٥٧.

بشريا ويتأنسن لمجرد أن العرب تكلموا به في لحظة تاريخية مكية أو مدنية. يعني لو زارنا شبح ما من المريخ، وأعطانا شيئا من أفكاره بلغتنا، تصبح أفكاره من منتجاتنا!! أين حقوق الملكية الفكرية؟ لا يوجد دليل واحد عند التاريخية تعتمد عليه فيما تقول، حتى العقل لا يقبل هذا الغلو والتطرف والتعسف في مصادرة العلوم والأفكار والأقوال، ونسبتها إلى غير أهلها بمجرد التكلم والتحدث بلغة السامعين للأفكار والعلوم.

ومن جهة أخرى قلت إن القرآن أصلا عربي قبل أن ينطق به العرب، وأصلا موجود قبل أن ينزل في ظروف أخرى، قبل أن يتعامل مع البيئة العربية. وكل ما جرى هو حمله من مكان إلى مكان، فبأي حق يتم السطو عليه لمجرد انتقاله.

ثم من قال إن العرب ابتدعوا اللغة العربية من غير مثال سابق؟ إن العلماء لا يزالون مختلفين في أصل اللغات.

والحقيقة أنني لم أفهم قصد نصر من قوله: «تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة». يعني يبدو أنه استعار (تجسدت) من الديانة النصرانية، وهي مشهورة بقولهم: إن عيسى ابن الله، ليصبح بشرا لا بد أن يتجسد، فيأخذ جسدا بشريا لم يكن هو عليه قبل التجسد. وهذه وإن كان لا أحد يفهمها إلى يومنا هذا، إلا أن الغريب كيف يتجسد النص المقدس، أو القرآن حسب بحثنا؟ هل القرآن كان في الأصل سائلا ثم تجسد بشكل ما؟ أم كان غازيّا، أو مادة صلبة ثم تحول لشيء آخر؟ إن التجسد يشير إلى انتقال من حال إلى حال أخرى مختلفة عن الأولى تماما. وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم، فهو كما هو لم يتم تحويله من شكل إلى شكل، كان قرآنا ولايزال، وكان عربيا ولا يزال، وكان كلام الله ولا يزال، كل ما هنالك أنه انتقل كما هو من فوق السماوات إلى الأرض، دون أي تعديل أو رتوش. فما معنى التجسد الذي يقصده نصر؟ ولماذا يتكلمون دون اهتمام بالبحث العلمي الذي يتحدثون عنه. إن احترام القارئ من أدبيات التأليف.

وبعد تأنسن القرآن –حسب زعمهم– يتحول إلى تراث بشري، ويسقط حق الإله أو يموت، يقول حسن حنفي: «فالدين ذاته أصبح تراثنا؛ لأن الدين قد تمثلته جماعة، وحولته إلى ثقافة طبقاً لمتطلبات العصر، لا يوجد دين في ذاته، بل يوجد تراث لجماعة معينة ظهر في لحظة تاريخية محددة، ويمكن تطويرها طبقاً للحظة تاريخية قادمة»[47].

واضح من كلام حنفي أن كلمة تراث عنده شاملة للنصوص المقدسة، وهي عندنا القرآن والسنة، والسبب في ذلك اعتماده على المرحلة السابقة التي حول فيها النص المقدس (القرآن) إلى

٤٧) التراث والتجديد –حسن حنفي: ٢٤.

غير مقدس متأنسن، وبالتالي صار بشرا ودخل مع منتوجات البشر، وصار التراث يشمل الجميع. والحقيقة ينتقل حنفي من مرحلة لأخرى دون معرفة القواعد التي تم الانتقال بناء عليها، ولا نعلم دليلا على ذلك.

ثم تطورت الفكرة عنده بأن القرآن لم يعد للعالمين، بل مجرد تراث لجماعة محددة، وهو مضطر لأن يقول هذا؛ لأنه لو قال (للعالمين) ينفكّ منه البيئة والتاريخ، فيتحرر النص من القيود وتنتهي التاريخية. مع أن القرآن ينطق بأنه للعالمين إلى يومنا هذا، فكيف هو منتج بشري عربي محدود بتاريخه، ولا تزال عبارات (للعالمين) فيه؟!

ثم المرحلة الثالثة بعد أن تأنسن ثم صار تراثا لجماعة، صار الآن خاضعا للتطور حسب الزمان والمكان، والتطور هنا ليس بالضرورة أن يكون له أي صلة بمعانيه القديمة، فكما رأينا يمكن أن يتطور (الله) إلى رغيف خبز، فبينما كان الله يُنتج الخلقَ، صار الخلقُ يُنتج الله!

ثم يضيف أركون مرحلة رابعة، وهي التغيير والتعديل والنقد للكتاب المقدس، فيقول: «نحن نريد للقرآن المتوسل إليه من كل جهة، والمقروء والمشروح من قبل كل الفاعلين الاجتماعيين (المسلمين)، مهما يكن مستواهم الثقافي، وكفاءتهم العقائدية، أن يصبح موضوعا للتساؤلات النقدية، والتحريات الجديدة المتعلقة بمكانته»[48].

والآن لو تساءلنا: كيف ستفيد التاريخية في تفسير القرآن الكريم، بعد أن فعلت فيه ما فعلت؟ ولو تم تفسيرها للقرآن حسب الأفكار والمبادئ السابقة، هل سيكون هو كلام الله، هدى للعالمين، وسيبقى يحمل ما أراده الله من مدلولات ومعان، وموضوعات عقدية وشرعية وتاريخية وأخلاقية وعلمية وغير ذلك؟ والأخطر من ذلك: هل ستقوم الحجة به على العالمين؟ وهل سيبقى التحدي والإعجاز الذي هو دليل رسالة محمد ﷺ موجودا؟ أم تبطل الرسالة، ويموت المرسِل، ويتألّه الإنسان؟

الواضح من منهج التاريخية هو فك الرابط بين قدسية القرآن والبشر، بين الأرض والسماء، بين الإنسان وخالقه، بين مادية الجسم وروحه. إلا أن فك المتلازمين لن يكون في صالح الإنسان.

المبحث الثاني: مدى الإفادة من المدرسة التاريخية في فهم القرآن الكريم

المطلب الأول: أصول تفسير القرآن مقارنة بالمدرسة التاريخية

للتفسير ضوابط وشروط وقواعد وأصول يفهم بها كتاب الله سبحانه وتعالى، وضع العلماء هذه

٤٨) الفكر الإسلامي قراءة علمية- محمد أركون: ٢٤٦.

الشروط حماية للقرآن الكريم من أن تنحرف معانيه عما قصد منه، وعن الإسلام بشكل عام، بحيث يفهم كتاب الله حسب الوجهة التي تتآلف مع باقي الدين وتتعاضد، فلا يجوز أن يفسر القرآن بطريقة يتناقض فيها مع السنة، أو مع مقاصد الشريعة، أو مع أصول العقيدة، وغير ذلك مما اهتم به العلماء.

ولما كان هذا البحث لا يتسع لكل هذه القواعد، كان من المناسب أن يتعرض بالدراسة لأهم مسائل التفسير وعلوم القرآن التي تطرقت لها التاريخية، واشتد فيها الخلاف مع أصول التفسير وقواعده وهي:

أولا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

قال بهذه القاعدة جمهور العلماء، ويقصدون بها، أن القرآن إذا نزل بسبب معين، وكانت ألفاظ الآية عامة، فإن الحكم الذي في هذه الآية، هو حكم لكل حادثة مشابهة بعدها إلى قيام الساعة[49]. ومثال ذلك: «حديث خولة بنت مالك بن ثعلبة – رضي الله عنها– قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت، فجئت رسول الله ﷺ أشكو إليه، ورسول الله ﷺ يجادلني فيه، ويقول: اتق الله، فإنه ابن عمك، فما برحت حتى نزل القرآن: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ...}»[50] [المجادلة: ١ – ٣].

فحُكم الظهار نزل في خولة بنت مالك المذكورة، إلا أن هذا الحكم يعم كل رجل يظاهر من زوجته، في أي زمان ومكان.

إلا أن التاريخيين يعترضون على هذا قائلين: إن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ. وليس الخلاف معهم في أن العبرة بخصوص السبب فيما لو كان اللفظ خاصا، ولا فيما لو كان اللفظ عاما والسبب خاصا، وأكدت القرائن على إرادة الخصوص. فهذا لا خلاف فيه، ولم يقل العلماء بعموم لفظه، وإنما الخلاف مع التاريخية عندما يكون اللفظ عاما والسبب خاصا، مع عدم وجود أي دليل على إرادة الخصوص، فيتوجب عندها القول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو ما يتناسب مع

---

٤٩) راجع: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ٣٢. والإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ١١٠. ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ١٣١. والموافقات للشاطبي: ٤/ ٣٩.

٥٠) سنن أبي داود: رقم (٢٢١٤) و (٢٢١٥) و (٢٢١٦) و (٢٢١٧) و (٢٢١٨) في الطلاق، باب في الظهار، وهو حديث حسن. والقصة مذكورة في البخاري أيضا: ١٣ / ٣١٦ في التوحيد، باب قول الله تعالى: {وكان الله سميعا بصيرا} تعليقا، ووصله النسائي: ٦ / ١٦٨ في النكاح، باب الظهار.

ظاهر القرآن، والظاهر أولى بالاعتبار ما لم يدل دليل على إرادة غيره، بالإضافة إلى أن التشريع عام، لارتباطه برسالة الرسول ﷺ للبشرية عامة بكافة أزمنتها، بألفاظ القرآن الكريم نفسها التي نزلت إبان نزول الوحي. وهذا ما يتعارض مع التاريخية التي تحكم على أي نص أنه من إنتاج الواقع ولو كان قرآنا، وأن هذا النص لا بد أن يكون مقيدا باللحظة التاريخية التي أُنتج فيها، وواضح من هذا أن قولهم يتعارض مع كون الرسالة والقرآن والشريعة للعالمين زمانا ومكانا.

يقول العشماوي: «إن أسلوب اقتطاع الآية عن أسباب النزول، وانتزاع الآية أو بعض الآية من السياق الذي تنزلت فيه، وجد تسويغا له في قاعدة فقهية تقول: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه القاعدة قاعدة فقهية؛ أي أنها من إنشاء الفقهاء، وليست قاعدة شرعية وردت في القرآن الكريم، أو جاءت في السنة النبوية، وهذا الاتجاه يجتزئ آية أو بعض الآية من السياق القرآني، ويقتطعه من كل الظروف التاريخية، ثم يستعمله استعمالا مطلقا»[51].

ويقول نصر حامد أبو زيد معترضا على القاعدة أيضا، منتصرا لخصوص السبب: «هل من المنطقي أن يتمسك العلماء بعموم اللفظ دون مراعاة لخصوص السبب؟... إن مناقشة دلالة النصوص من خلال ثنائية (عموم اللفظ وخصوص السبب) أمر يتعارض مع طبيعة العلاقة بين النص اللغوي وبين الواقع الذي ينتج هذا النص»[52].

يمكن تلخيص نقاط اعتراض التاريخيين بالنقاط الآتية:

١. القاعدة تتعارض مع العلاقة بين النص والواقع المنتج لها، وتسمح للنص أن يعمل خارج بيئة سبب النزل.
٢. لا دليل من الكتاب والسنة على القاعدة.

وللإجابة عن هذه النقاط، فإن الناظر في القاعدة وتطبيقاتها، لا يجد بينها وبين بيئة سبب النزول أي تعارض، بل إن العلماء متفقون على أن سبب النزول داخل في العموم حتما، ولا يطاله التخصيص أبدا فيما لو حصل.

إلا أن القاعدة سمحت للنص لأن يكون عاملا في حكمه في باقي الحوادث المشابهة، في أي زمان ومكان. هذا يبطل ركائز التاريخية باعتبارها قامت على ضرورة تقييد النص ببيئته، وأنه منتج بشري لبيئته وجماعته فقط. لكن هذا الاعتراض غير مبرر؛ لأن التاريخية هنا لا تواجه القاعدة، وإنما تواجه الرسالة الإسلامية، فالتاريخية تريد تقييد النصوص بزمان سبب النزول، ولتلك الجماعة فقط.

---

٥١) كتابه: الإسلام السياسي: ٦٤.

٥٢) كتابه: مفهوم النص: ١٠٢وما بعدها.

بينما الرسالة الإسلامية المتمثلة بالقرآن، جاءت لعموم الناس إلى قيام الساعة. وقاعدة العبرة بعموم اللفظ تخدم الهدف الذي جاءت لأجله الشريعة.

ثم إن هذا الاعتراض غريب من أساسه، فإن قاعدة العبرة بعموم اللفظ ليست خاصة بتفسير القرآن الكريم، هي أساسا معادلة عقلية مركوزة في عقول البشر خلقا لا كسبا، فلو كسر أحد أبنائك الزجاج فقلت له: مَن يكسر الزجاج يدفع ثمنه. فسيفهم هو وغيره نفس الحكم. وهذا موجود حتى في القوانين الوضعية، فقد يحصل حادث ما، فتسن الدولة قانونا عاما بسببه، ويكون القانون عاما لفظا، وشاملا حكما للزمان والمكان، ما لم يُعدّله المشرّع أو يُلغه بقانون متأخر.

وقد أشار ابن تيمية إلى الجانب العقلي في القاعدة فقال: «الذين قالوا: إن هذه الآية نزلت في كذا، لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم، ولا عاقل على الإطلاق»[53].

أما دعوى أن لا دليل على هذه القاعدة، فهذا غير صحيح للأسباب الآتية:

١. القاعدة من بدهيات العقول ولا تحتاج إلى دليل. والبشر مفطورون عليها.
٢. ثم إن الأدلة على القاعدة كثيرة ومنها: «عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فنزلت: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤] فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي»[54]. فجعل الرسول ﷺ حكم الآية التي نزلت في سبب خاص لكل الأمة، في أي زمان ومكان.

إن اعتراض التاريخيين على هذه القاعدة، والعمل على عكسها، يغلق الباب تماما بينهم وبين تفسير القرآن الكريم، إذ إن هذه القاعدة ركن عظيم من أركان التفسير، وإذا أخذنا مقاصد التاريخيين بالاعتبار، فستكون هذه القاعدة من أركان الدين الإسلامي يُهدم بغيرها.

ثانيا: أسباب النزول

ينقسم سبب النزول إلى نوعين:

---

٥٣) ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير: ١٦.

٥٤) البخاري: ٢ / ٧ في مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، وفي تفسير سورة هود، باب {وأقم [ص:١٩٧] الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات}. ومسلم رقم (٢٧٦٣) في التوبة، باب قوله تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات}.

١. ما نزل ابتداء من غير سبب خاص: وهو أكثر القرآن الكريم، فقد نزل بسبب عام وليس خاصا، وهو هداية البشرية إلى دين الله.
٢. ما نزل بسبب خاص وهو قليل: ويكون بسبب حادثة حصلت أو سؤال. وعندما يطلق لفظ: (سبب النزل) فعادة يكون هذا الخاص هو المقصود. وتعريفه: ما نزل قرآن بسببه أيام وقوعه.

ولسبب النزل فوائد مذكورة في كتب علوم القرآن، وأهمها أنها تعين على فهم الآيات التي نزلت على السبب الخاص[55].

أما طريقة معرفة سبب النزول فبالرواية وليس بالاجتهاد؛ لأنها مسألة خبرية بحتة، والأخبار لا تأتي بالاجتهاد وإنما بالخبر. فيصبح الاجتهاد فيه كذبا على الرسول ﷺ. قال الواحدي: «لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها»[56].

وبالرجوع إلى المدرسة التاريخية، تبين أنها تنظر إلى سبب النزول بطريقة مختلفة. يقول نصر حامد أبو زيد: «إن أسباب النزول ليست سوى السياق الاجتماعي للنصوص، وهذه الأسباب كما يمكن الوصول إليها من خارج النص، يمكن كذلك الوصول إليها من داخل النص، سواء في بنيته الخاصة، أم في علاقته بالأجزاء الأخرى من النص العام. ولقد كانت معضلة القدماء، أنهم لم يجدوا وسيلة للوصول إلى أسباب النزول إلا الاستناد إلى الواقع الخارجي، والترجيح بين المرويات»[57]. ويقول: «إن علم أسباب النزول يكشف عن تفاصيل هذا التفاعل، ويكاد يزودنا بالمراحل الدقيقة لتشكيل النص في الواقع والثقافة»[58].

ويقول حسن حنفي مؤكدا تشكل الآيات بعد سبب النزول: «ما عبر عنه القدماء باسم أسباب النزول، لهو في الحقيقة أسبقية الواقع على الفكر ومناداته له»[59].

ويقول عشماوي: «فالقرآن تنزل منجماً متفرقاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، حيث كانت

---

٥٥) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ٢٢ وما بعدها. وانظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ١٠٧ وما بعدها. ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١/ ١٠٦ وما بعدها.

٥٦) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ١١٤. وانظر: مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/ ١١٤.

٥٧) مفهوم النص – نصر حامد أبو زيد: ١١١.

٥٨) المرجع السابق: ٧٥.

٥٩) التراث والتجديد- حسن حنفي: ١٥.

كل آية، أو كل مجموعة من الآيات تتعلق بواقعة بذاتها، أو تتصل بحادثة معينة، أو تعد رداً على سؤال وجه أو تحد أثير»[60].

ومن الاقتباسات السابقة نحدد رأي التاريخية في سبب النزول بالنقاط الآتية:

١. سبب النزول ليس إلا سياقا اجتماعيا، ليس له علاقة بوحي ينزل، أو صحابي يروي، وبالتالي هو اجتهاد يدرك بالتأمل في النص من كلماته، ولا بالنظر في الروايات من خارجه، فالسبب ليس خبرا عن التنزيل، وإنما إنشاء بالاجتهاد.
٢. الآيات يتم تشكيلها بعد سبب النزول من خلال البيئة، وليست نزولا لآيات مقدسة من عند الله، كما لا وجود للآيات بأي شكل قبل ظهور السبب.
٣. لكل آية أو مجموعة آيات سبب نزول خاص.

ولو ناقشنا النقطة الأولى: نجد رأيهم بأن سبب النزول يدرك بالاجتهاد، من خلال التأمل بالآية، في غاية الغرابة، فالمسألة ليست قاعدة محصورة في أصول تفسير القرآن، بل يتفق العقلاء أن الأخبار مردها إلى الرواية والسماع، وليس الاجتهاد، فعلى طريقتهم يمكن للإنسان أن يتأمل في وجه شخص ما، على وجهه آثار جرح، ويستنبط من خلال تفرسه بوجهه أنه قبل ٢٠ سنة عمل حادثا بسيارته، ولم يستطع إصلاحها بسبب الفقر، وأن خصمه اشتكى عليه في المحكمة، وتم حبسه لمدة شهر، وفي السجن تشاجر مع آخر فضربه على وجهه!! فهذا الأثر سببه، (سبب نزوله) هو هذه القصة!! هذا الكلام لا ينسجم مع مناداتهم بالبحث العلمي.

والإشكال هو ما سيخلف هذا الكلام من انحراف منهجي، إذ إن تفسير الآيات سيكون تابعا لسبب النزول الذي استنبطوه! وبالتالي سيكون تفسيرا مزاجيا، لا علاقة له بالقرآن الكريم ومقاصده.

أما النقطة الثانية: التي ترى أن تشكيل الآيات يكون بعد سبب النزول، فخلله من أمرين:

الأول: أن الآيات عبارة عن كلام الله سبحانه، وليست من كلام البشر، وبالتالي فمن تكلم بالآيات هو الله سبحانه، وهي عندنا كما هي، ولم تكن الآيات أحرفا متناثرة، أو مجموعة مكونات تم تشكيل القرآن منها.

الثانية: القرآن موجود قبل سبب النزول لا بعده، وقد سبق الكلام عن وجوده في اللوح المحفوظ. وبالتالي لم يُنتج أو يتشكل بعد النزول من أحد، وسبب النزول هو المناسبة الزمنية لنزول الآيات التي تُشرّع للسبب ولغيره مما شابهه إلى قيام الساعة، ولكل العالمين. فسبب النزول هو اللحظة التي وظفها

---

٦٠) الإسلام السياسي- محمد سعيد العشماوي: ٢٦٠. وانظر: مفهوم النص – نصر حامد أبو زيد: ٩٧-٩٨.

التشريع لصالح إنزال هداية الآيات للعالمين.

والإشكال الأكبر هنا: أن التاريخية عندما تفسر القرآن بناء على هذه النقطة، سيكون تفسيرا تحجيميا للقرآن، يحبسه في البيئة العربية الأولى، واختيار دين آخر للبيئة التالية، ولكل بيئة دينها، والإنسان –حسب زعمهم– قادر على تشكيل النصوص الدينية وغير الدينية!

أما النقطة الثالثة: فمليئة بالغرائب، إذ كيف وجدوا سبب نزول خاص لكل آية أو مجموعة آيات للقرآن الكريم، وقد خلت كل كتب التراث من هذا. بل المعروف وهو الحقيقة، أن أسباب النزول قليلة جدا مقارنة بعدد الآيات، وما صح منها أقل بكثير، وما اعتُمد بأنه صيغة صريحة في السببية وغير احتمالية، يمكن أن نقول: نادر[61].

وهنا لا يفهم من كلام نصر وغيره أنه يهتم بكثرة الروايات ليقلل من الاجتهادات! بل السبب الذي يستنبطه باجتهاده هو المعتبر أولا؛ لأنه لا يثق برواة سبب النزول من التابعين فهو يقول: «وإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر التابعين كان عصر الخلافات السياسية والفكرية، أدركنا أن تحديد أهل الثقة من الرواة تم على أساس إيديولوجي، انتهى إلى إعطاء سلطة دينية مطلقة في مجال هذه المرويات لبعض التابعين دون بعض»[62]. والإشكال أن الدين كاملا قرآنا وسنة مروي عن التابعين!! فالطعن في التابعين جملة طعن في الشريعة كاملة!! وهو مردود بعلم الجرح والتعديل الذي تميزت به هذه الأمة من بين الأمم، وحفظ الله به دينه ليستمر للعالمين، بعد خاتم المرسلين.

فهم من جهة يتطرفون في إثبات أسباب نزول كثيرة، ثم يرفضونها جميعها، فيبقى المصير إلى تلك الأسباب التي يستنبطونها هم اجتهادا، وليس رواية. إلا أن السبب الرئيس وراء تأكيد وجود أسباب نزول لكل القرآن بأي شكل من الأشكال، هو إصرارهم على جعل القرآن من منتجات البيئة العربية، فالعرب شكلوه، وهو منتجهم، مقيد بهم وبزمانهم، وما يأتي من زمان سينتج له الإنسان عقائد وأفكارا أخرى.

وسيضرب البحث مثالا واحدا ليُعلم كيف يجتهدون في استنباط سبب النزول: يقول الجابري عند تفسيره لكلمة: {الإنسان} في سورة التين: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [سورة التين].

«الإشكالات لا تطرح إلا إذا فهم لفظ {الإنسان} في السورة على نوع الإنسان. أما إذ خصصناه بشخص بعينه... فإن اللبس سيزول... علينا إذن أن نوجه تفكيرنا هنا إلى أحد رجالات

٦١) غير المراجع التي ذكرتها في التعريف بسبب النزول، راجع: الصحيح المسند من أسباب النزول لمقبل بن هادي الوادعي. كاملا.

٦٢) مفهوم النص – نصر حامد أبو زيد: ١١١.

قريش، ممن يمكن أن ينطبق عليهم مضمون السورة. وفي هذا الإطار يخطر بالبال الوليد بن المغيرة، أحد كبار زعماء قريش، الذي نزلت فيه آيات عديدة... فهذا الرجل تنطبق عليه الآيات التي نحن بصددها»[63].

فإذاً عرف الجابري بعد ١٤٠٠ سنة، وسلسلة كبيرة من أجيال البشر، فيمن نزلت هذه الآيات من خلال ما «يخطر بالبال»، لا يحتاج إلى الرجوع إلى أقوال من شاهدوا التنزيل، ولا ما يرجحه العلماء في هذا الشأن، ولا يصحح ولا يضعف، ولا علم جرح وتعديل. وهذا لا يعدّ منهجا علميا في البحث، كل هذا حتى لا تبقى الآية عامة لنوع الإنسان، وتنطلق خارج البيئة العربية لتخاطب البشرية كما يريد رب العالمين، فيحاول قسرا أن يغرسها بالبيئة العربية، لتكون من منتجاتها، فلابد أن يكون {الإنسان} رجلا عربيا محددا في تلك الفترة الزمنية. مع أن تفسير {الإنسان} بنوع الإنسان واضح، وهو ما ينسجم مع مقاصد القرآن الكريم، وضوابط اللغة وأساليب العرب، وهو اختيار العلماء، وهو المتبادر إلى الذهن.

لا شك أن بُعد المدرسة التاريخية عن ضوابط البحث العلمي، واعتماد مثل هذه الطريقة في التفسير، لا يفيد التفسير، ولا فهم القرآن.

ثالثا: حقيقة القصص في القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله، كتاب هداية إلى الدين الحق، وبالتالي هو ليس كتاب طب، أو فلك، أو تاريخ، وما شابه. ولكنه مع ذلك تعرض إلى القليل من هذه العلوم، وسخرها للهداية كذلك، وطالما ذكرها الله سبحانه في كتابه، فلا بد أن تكون صحيحة ودقيقة، فإن كانت خبرا، فلا بد أن يكون هذا الخبر حقيقيا واقعيا، إذ هذا الفرق بين كتاب الله الكامل، والبشر الناقص، وقد قال سبحانه في كتابه إن القرآن ليس حديثا يفترى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف: ١١١]. وقال إن ما يقصه حق وهذا يشمل كامل القرآن الكريم: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ٦٢]. وكل كلام متتابع يتبع بعضه أثر بعض فهو قصص، فالقرآن كله قصص من هذا القبيل. وكله حق.

إلا أن المدرسة التاريخية لا تتفق مع هذا الكلام. وترى أن قصص القرآن الكريم خيالية، وليست واقعية، ولا حقيقية. يقول محمد خلف الله: »القرآن يجري كما ترى في فنه البياني على أساس ما كانت تعتقد العرب وتتخيل، لا على ما هو الحقيقة العقلية، ولا على ما هو الواقع العملي...

٦٣) فهم القرآن الحكيم- محمد عابد الجابري: ١٠٩/١.

وأعتقد أن قد وضح أن القرآن قد قص في القصص التي كانت موطن الاختبار، لمعرفة نبوة النبي عليه السلام، وصدق رسالته، ما يعرفه أهل الكتاب عن التاريخ، لا ما هو الحق والواقع من التاريخ، وأنه من هنا لا يجوز الاعتراض على النبي عليه السلام، وعلى القرآن الكريم، بأن بهذه الأقاصيص أخطاء من أخطاء التاريخ»[64].

ويقول أركون: «صحيح أن النبي كان قد أمر بكتابة بعض الآيات في حياته، وأنه بعد بضع سنوات من موته راح الخليفة عثمان يشكل نسخة رسمية للوحي (المصحف)... ضمن هذا المعنى نلاحظ أن المعطيات الخارقة للطبيعة والحكايات الأسطورية القرآنية سوف تتلقى بصفتها تعابير أدبية. أي تعابير مُحوَّرة عن مطامح ورؤى وعواطف حقيقية، يمكن فقط للتحليل التاريخي والسوسيولوجي والبسيكولوجي واللغوي أن يعريها ويكشفها»[65].

ويقول الجابري: «القصص القرآني هو نوع من ضرب المثل، وهكذا فكما أننا لا نسأل عن صحة القصة التي وراء الأمثال التي تضرب لموقف أو حال، فكذلك القصص القرآني في نظرنا، والصدق في هذا المجال سواء تعلق الأمر بالمثل أو بالقصة، لا يُلتمس في مطابقة أو عدم مطابقة شخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي، بل الصدق فيه مرجعه خيال المستمع ومعهوده»[66].

نلاحظ في نظرة المدرسة التاريخية للقصص القرآني النقاط الآتية:

١. القرآن ساير العرب وأهل الكتاب في قصصه، فكان يتحدث فيما يعرفون ولا ينكرون.
٢. القصص القرآني عبارة عن حكايات أسطورية محوّرة، سيكشف زيفها التحليل التاريخي.

أما ما جاء في النقطة الأولى فغريب جدا، ومتناقض عما في القرآن الكريم، فالقرآن دأب على مخالفتهم وإثبات كذبهم.

فالنصارى يرون أن عيسى ابن الله، وسورة مريم في القرآن تقول إنه عبد لله، نبي، وهو ابن مريم وليس ابن الله، وأنه بشر خلق من غير أب، كما خلق آدم من غير أب وأم. قال تعالى عن عيسى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

٦٤) الفن القصصي في القرآن- محمد خلف الله: ٦٧-٧١. وانظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني- محمد أركون: ١٤٥ وما بعدها.

٦٥) الفكر الإسلامي قراءة علمية- محمد أركون: ١٩٠-١٩١.

٦٦) مدخل إلى القرآن الكريم- محمد عابد الجابري: ٢٥٨. بتصرف بسيط.

مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [مريم: ٣٠ - ٣٥].

وكذلك اعترض القرآن على قول اليهود عزير ابن الله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة:٣٠]

وقال: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء:١٥٦-١٥٧]. وفي هذه الآيات اعتراض على زعم اليهود قتل المسيح، واعتراض على عقيدة النصارى في صلب المسيح.

ثم إنه سبحانه يرد على المشركين وعلى أهل الكتاب في أمر إبراهيم عليه السلام: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٦٧]. ثم إن كل قصص الأنبياء في القرآن الكريم، هي قصص التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وكلها معاكسة لما يهوى المشركون.

وفي النقطة الثانية: يشير إلى أنها قصص ملفقة مزورة سيكشف زيفها التحليل. ولا أعرف لماذا تأخر البحث العلمي للآن؟ مضى على الرسالة أكثر من أربعة عشر قرنا، وهو يتحدى أن يجدوا فيه خطأ صغيرا. فإن كان الزيف واضحا إلى هذه الدرجة، فلماذا التأخير في إظهار الدليل؟ أم أن الموضوع مجرد تلفيق التهم لكتاب الله، ولا علاقة لكل هذا الكلام بالبحث العلمي الذي يدندنون حوله، وهم أبعد ما يكونون عنه؟ فليس في القرآن شيء ملفق من هنا وهناك، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤]. وقال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هود: ٤٩].

وبعد أن عرفنا وجهة نظر المدرسة التاريخية في القصص القرآني، وإنكارهم لحقيقته، وقولهم بتزويره، فلا شك أنهم قد ابتعدوا كثيرا عن المساهمة في تفسير القرآن الكريم.

المطلب الثاني: نماذج تطبيقية من تفاسير المدرسة التاريخية

يشترط العلماء شروطا كثيرة على من أراد التقدم لتفسير القرآن الكريم، تحفظ للقرآن مراده ومقاصده قدر المستطاع، وتعدّ هذه الشرائط أول نظرية وضعت على أسس علمية في فهم النص، وإن كان بعضها خاصا بالنص القرآني، إلا أن أكثرها مأخوذ من المحاكمات العقلية والمنطقية التي تفرض نفسها، وهي عاملة في كل كلام. ومن أهم هذه الشروط أن يكون المفسر عالما سليم الاعتقاد، ملما بأحوال البشر، عارفا بأصول الدين، وتفسير الرسول ﷺ، والقراءات، واللغة بكافة أحوالها من بلاغة ونحو وصرف وغير ذلك، ملما بما يسمى (علوم القرآن) مثل: الناسخ والمنسوخ، أسباب النزول، المكي والمدني وغير ذلك، ثم الفقه وأصوله، ومعرفة مواطن الإجماع[67]. وباختصار: كل علم يفيد في تفسير القرآن فهو داخل في هذا العلم.

وسنعرض الآن لأمثلة من تفسير المدرسة التاريخية، لنرى مدى دقة أدائها في تفسير القرآن الكريم، ومدى إفادتها في استخراج معانيه وهداياته.

المثال الأول: يقول النيهوم في تفسير قوله تعالى: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [الكهف: ١٨].

«هنا تصبح الآية: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} رمزا لحالة الركود المعروفة في تاريخ المسيحية بين ميلاد عيسى المسيح وبين عصر الإمبراطور قسطنطين، وهي فترة تميزت بحالة حادة من الخمود الكلي في مناطق الدين الجديد.

وتصبح الآية: {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ}، رمزا لحالة التيه التي عاشها أتباع المسيحية في تلك الفترة ملتمسين طريقهم لنشر تعاليم المسيح بين أوروبا وبين أثيوبيا، عبر أديرة سيناء وكهوف الرهبان، في جبال البحر الأحمر.

وتصبح آية: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}، إشارة أكثر وضوحا إلى أن الدين الجديد كان يواصل انتشاره في مناطق مأهولة بالشعوب التي تحترف الرعي»[68].

واضح أن النيهوم لم يرجع إلى التفاسير، ولا إلى آيات أخرى تفيده، ولا إلى السُّنة، ولا إلى أقوال

---

٦٧) لمعرفة الشروط راجع: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢/ ١٦٤. والإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٤/ ٢٠٠. ومناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ٢/ ٥٢. والموافقات للشاطبي: ٤/ ١٩٨.

٦٨) الرمز في القرآن- الصادق النيهوم: ٦٣-٦٤.

من شاهدوا التنزيل، أو العلماء، أو إلى اللغة العربية، أو إلى علوم القرآن، وغير ذلك مما كان متوقعا رجوعه إليه حين التفسير. لم يرجع إلى أي شيء غير خياله في تفسير هذه الآية الكريمة، لم يقبل ما قاله السابقون ممن تمكن من أدوات التفسير، ويريدنا أن نقبل بما تهيأ له، فهذا التفسير غريب عن التراث الإسلامي كله، بل عما يمكن أن يصدر عن ذي لبّ، ولعله لم يسبقه إليه بشر لغرابته، وبعده عن التوقع. فالآية تتحدث عن مجموعة من الفتية الذين حوربوا بسبب دعوتهم إلى الدين الحق، فالتجؤوا إلى كهف بصحبة كلبهم، وناموا، وكيف أنهم كانوا في وضعية يحسبهم من نظر إليهم غير نائمين. والتفاصيل في كتب التفسير.

ومن الغريب في هذا التفسير أنه حدد الفترة الزمنية لأصحاب الكهف: «بين ميلاد عيسى المسيح وبين عصر الإمبراطور قسطنطين». ومع الأسف، لم يسعفنا بأي مرجع تاريخي، ولا غير تاريخي، لهذا ولا لغيره من أقواله.

هنا اعتمد النيهوم على أن المؤلف قد مات، وأن هذه القصص أسطورية لا حقيقة لها، فأراد أن يفسر الآية بما يراه مناسبا، والحقيقة إن تفسيره هذا ليس بعيدا فقط عن أصول التفسير وضوابطه، بل بعيد عن النواميس العقلية، وعن مقاصد الدين من القصص القرآني؛ وهي بمجملها تذكر قصص الموحدين، وما عانوه في سبيل دعوتهم، وكيف أن الله كان معهم. وبالتالي تشرّع للأجيال أهمية الصبر على البلاء، وأن الحق مرّ على الناس، وفيه مواجهة متوقعة مع الباطل، إلا أن النصر من نصيب المؤمنين في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فقط.

المثال الثاني: لخليل عبد الكريم عند قوله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤]

حيث ذكر الحديث في سبب نزولها وهو: «عن ابن مسعود ﷺ: أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فنزلت {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين} [هود: ١١٤] فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذه؟ قال: لمن عمل بها من أمتي»[69].

ثم قال متهكما بالرسول وصحابته: «إن المرء ليعجب أشد الإعجاب بحلم (خير من وطئ الأرض) وصبره، فهو عندما سمع تلك الحكاية المخجلة، رغم نهيه الباتر كما السيف الصارم عن الاتصال بهن بأي صورة، لم ينفعل، ولم يعنف مرتكبها، ولم يوجه لهم كلمة عتاب أو لوم، لماذا؟ لأنه

٦٩) البخاري: ٧/٢ في مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة، وفي تفسير سورة هود، باب {وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات}. ومسلم رقم (٢٧٦٣) في التوبة، باب قوله تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات}.

يدرك عرامة غريزة الاتصال بالآخر، ولا يريد أن يقسوا عليهم؛ لأنه بحاجتهم في الغزوات والسرايا، فقد ينفضوا عنه، وبالتالي تباعد بينه وبين نشر الديانة، وتحول دون تحقيق حلم الجدود: إقامة دولة قريش. وهذا برهان ساطع على تاريخية السور والآيات، وارتباطها بإكراهات المجتمع الذي انبثقت في حناياه، وبسلوكيات الفاعلين في جنباته»[70].

وبغض النظر عن أسلوب خليل عبد الكريم التهكمي الذي -مع الأسف- فارق به البحث العلمي وآدابه، أقول:

واضح أن خليلا رجع قبل تفسيره إلى التفاسير، والسنة المطهرة، ولكن ليس من أجل الإفادة منها، وإنما للسخرية من طرحها. وكان بإمكانه أن يترك أحاسيسه الشخصية جانبا، ويناقش أهل العلم بما قالوه، ويرد عليهم حسب أصول البحث العلمي المعروفة، فيما لو كان مخالفا لهم.

لقد لخص القرطبي تفسير الآية مستعينا بسببها بقوله: «دلت الآية مع هذه الأحاديث، على أن القُبلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحد»[71]. طبعا قول القرطبي: (لا يجب فيهما الحد)، لا يعني أنه مباح، بل هو حرام باتفاق، ولكن لكثرة أحواله واختلافها، تُرك تقدير عقوبتها للحاكم، فمعنى: (الحد) العقوبة التي لا اجتهاد فيها، فهي معينة تحديدا في الشريعة[72].

إلا أن خليلا رأى أن الرسول ﷺ كان يغطي فساد أخلاق صحابته، بتسهيل الأمور، ويترك عقوبتهم أو معاتبتهم من أجل أن يستبقيهم حوله، ليكونوا له عونا في تحقيق حلمه وحلم أجداه في إقامة دولة قريش!

فيكون الرسول ﷺ في نظر خليل مجرد مدلّس على صحابته، ومخادع يدعي الرسالة كذبا، فهو ليس رسولا يدعو إلى الدين الحق، بل يخترع الدين من أجل تحقيق انتصارات سياسية. وهذا التفسير مع انحرافه الشديد من الناحية الفكرية، إلا أنه من الواضح بأن خليلا لم يطلع لا على دعوة الرسول، ولا على دعوة أجداده، فهو يرى الرسول ساعيا لتحقيق حلم أجداده، وأكبر تهمة وجهتها له قريش أنه خالف أجداده، وجاءهم بما لا يعرفون! كما أننا بانتظار الدليل على دعواه أن قريشا كانت تسعى لبناء دولة خاصة بها.

ومن الجدير بالذكر، أن تفسير هذه الآية بالذات، كان يتطلب اطلاعا على قانون العقوبات في

---

٧٠) النص المؤسس ومجتمعه – خليل عبد الكريم: ٢/٦٠ وما بعدها.

٧١) تفسير القرطبي: ٩/ ١١٢.

٧٢) راجع: تفسير الطبري، والقرطبي، والرازي عند الآية المذكورة.

الشريعة الإسلامية، ومن الواضح أن خليل لم يطلع عليه، ولا يعلم شيئا عن فلسفته، إذ إن العقوبات في الشريعة ليست مبنية على الانتقام والتشفي، فهذا تحاربه الشريعة، وإنما مبينة على الردع وحفظ المجتمع، وإذا أردنا أن نطبق هذين البندين في جناية هذا الصحابي نقول:

البند الأول: الردع: ففي سبب النزول سالف الذكر، ارتكب الصاحبي جناية وعدوانا على امرأة، وعدم عقوبة الرسول ﷺ له؛ لأن الجاني هنا لا يحتاج إلى ردع! فقد تم ردعه بإيمانه العظيم، وتوبته الظاهرة، فإن اقترافه للإثم أعقبه ندم عظيم، وشعر بعظمة ربه الذي عصاه، فهانت عليه نفسه وسلمها للحاكم، لتلقى جزاءها، من غير أن يبالي بسمعته عند رسوله أو عند الآخرين، فهو يجهر بما حصل، وهمه أن يغلق هذا الملف في الدنيا قبل الآخرة، ومثل هذه الاعتراف في مسألة أخلاقية، وعلى الملأ لا يفعله إلا ندرة من البشر، وكم من إنسان أقيم عليه الحد، ثم يعود دون أن يتحقق فيه الردع، فهذا قد ارتكب جرما لا حد فيه، ورأى الحاكم أنه قد تحقق فيه الردع، فهذا البند الأول من فلسفة العقوبة قد انتهى.

وأما البند الثاني: وهو حفظ المجتمع، فأقول لو أن المرأة اشتكت على هذا الجاني، لكان دليلا على اهتزاز أمن المجتمع في عرضه وشرفه، وعندئذ لن يصيبه العفو حتما، وسيعاقب بطريقة ترضي المجني عليه، وتعيد للمجتمع أمنه. ولو أن الجريمة ثبتت بالأدلة، كان سيعاقب الجاني أيضا؛ لأنه لم يظهر تحقق الردع، كما أن عين المجتمع كانت تراقبه، فلا بد من تأمين المجتمع. إلا أن الحال التي نحن فيها، ليس فيها شكوى، ولا أدلة، الجريمة بين الجاني وبين ربه، ومجيئُه كان للتطهير، دون مبالاة بما يعاقب به أو يقوله الناس. وعليه فلا تهديد للمجتمع، ولا داع للردع، وفلسفة العقوبات إنما تقوم على هذين الأمرين، لذا اكتفى الرسول ﷺ بتوبته.

وختم خليل كلامه، بأن هذه القصة تؤكد تاريخية السور القرآنية، فأقول: بالطريقة التي شرحها هو فمن المؤكد أن الدين كله تاريخي، بل تاريخي أسود، هذا ما حاول أن يصل إليه خليل، ولكن الأمر ليس كما تمناه، فدراسة الواقع لا تكون بإسقاط الأمنيات عليه، وإنما بدراسته دراسة علمية منصفة.

ومن كل ما سبق اتضح أنه لا يمكن الاستفادة من تفسير خليل، لكونه لم يمتلك أدواته وأصوله، ولم يلتمس منهجا علميا سليما، ولم يتخلق بالموضوعية التي هي من أهم ركائز البحث العلمي.

المثال الثالث: يقول محمد شحرور عند قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: ١٤]

»فإذا كانت {النساء} هنا هي جمع امرأة، وقعنا في طريق مسدود لا مخرج منه، وهو في آل عمران ورد اسم شارة بقوله: {ذلك متاع الحياة الدنيا}، ففي هذه الآية أصبحت المرأة (متاعا) ما ينتفع به، وقد عوملت فعلا هكذا على مدى قرون، على أنها (شيء) من الأشياء، فإن الفقه الإسلامي الموروث يعتبرها كذلك، ولكن يمكن أن أبرر لهم ذلك بعدم فهمهم لنظرية الحدود أولا؛ ولأنه في سياق التطور التاريخي كان الرجل هو المسيطر في المجتمع، فتم تفصيل الإسلام متناسبا مع الرجال تماما»[73]. نلخص النقاط التي ذكرها شحرور بالآتي:

١- النساء في هذه الآية ليست جمع امرأة.
٢- لا يقال للمرأة متاع، لما فيه من الاحتقار
٣- المرأة ليست شيئا
٤- الفقه الإسلامي تعامل معها باحتقار، وأنها متاع.
٥- تم تفصيل الإسلام ليتناسب مع الرجال حسب السياق التاريخي

وقد خالف شحرور التفسير والمفسرين وأهل اللغة فيما قال، فالنقطة الأولى: اعترض أن تكون (النساء) جمع امرأة. وكنت متشوقا لمعرفة إن لم تكن النساء جمع امرأة فماذا تكون؟ لكنه ذهب وترك المسألة معلقة. ومعلوم أن (امرأة) ليس لها جمع من لفظها، فهي تجمع على نساء. وهذه مسألة لا نقاش فيها، وحتى شحرور انسحب منها ولم يعطنا معنى للنساء.

أما النقطة الثانية: فكبر على شحرور أن تكون المرأة متاعا، ولم يذكر السبب، وواضح أنه أراد استثارة العوام؛ لأن معنى المتاع عند العوام كمعنى حقيبة ولعبة ووسادة وما شابه، أما أهل العلم فيعلمون أن المرأة أكبر متاع في هذه الدنيا، هذه مسألة محسومة عند علماء الغرب والشرق، والمقصود تحديدا الشهوة الجنسية التي تقض المضاجع وترتكب بسبب قوتها الموبقات والجرائم. والله سبحانه إنما يتحدث عن جانب الشهوة تحديدا في هذه الآية، وليس عن الحقوق والواجبات والكرامة الإنسانية، فالإسلام أعطى المرأة ما لم يعطها أحد غيره.

ولا تزال شهوة النساء من الفتن الكبيرة، وهذا لا يعني أن الرجل ليس شهوة للمرأة، ولا يعني أن الشهوات محصورة فيما ذكر، وإنما سبحانه يذكر أعظم الشهوات في هذه الدنيا لا كلها، وشهوة النساء تجاه الرجال تلحظ في الآية الكريمة في قوله: {زين للناس} ولم يقل زين للرجال. والنساء من الناس، فيكون الرجال شهوة للنساء والعكس صحيح.

والمتاع في لغة العرب يطلق على كل ما يتمتع به شريفا أو حقيرا، يقول الفراهيدي: «كل

٧٣) الكتاب والقرآن لمحمد شحرور: ٥٩٥. بتصرف بسيط.

شيء تمتعت به فهو متاع، تقول: إنما العيش متاع أيام ثم يزول»[74]. ويقول ابن فارس: «(الميم والتاء والعين) أصل صحيح يدل على منفعة وامتداد مدة في خير. منه استمتعت بالشيء. والمتعة والمتاع: المنفعة»[75].

وفي النقطة الثالثة: جعل كون المرأة (شيئا) من الاحتقار، ويبدو أنه لا يزال يخاطب العوام، فإن لم تكن المرأة شيئا فماذا تكون إذا؟ هل تكون خرافة؟ أو أسطورة؟ أم خيالا؟ وهل سيكون لها أي احترام وحقوق إن لم تكن شيئا؟ ولنفرض أن المرأة صارت إلها، هل ستخرج عن كونها شيئا. يجوز أن نقول عن الله (شيء)، قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام: ١٩]. فالله أطلق على نفسه لفظ: (شيء) فأين الاحتقار؟

وفي النقطة الرابعة: اتهم الفقه الإسلامي بأنه تعامل معها باحتقار على أنها متاع، ولم يذكر لنا أين اعتبر الفقهاء المرأة متاعا بالمعنى السلبي الذي قصده شحرورو؟ ليته اقتبس لنا من العلماء أنهم أجازوا إعارة المرأة كما يعار المتاع، أو أجازوا بيعها على سبيل التمليك الحقيقي كمتاع، أو تقطيعها وصناعة السماد من عظامها ولحمها. أو ما شابه ذلك مما يُفعل بالمتاع.

وما أغرب ما قال، فالعرب إنما تعلمت من الإسلام احترام المرأة، وأهل الكتاب في المدينة كذلك، «فعن أنس بن مالك ﷺ قال: إن اليهود كانت إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن[76] في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي؟ فأنزل الله عز وجل: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فائتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} [البقرة: ٢٢٢] فقال رسول الله ﷺ: اصنعوا كل شيء إلا النكاح. فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه»[77].

فكان اليهود إذا حاضت المرأة لا يأكلون معها، ويخرجونها من البيت، يعني ربع حياة المرأة اليهودية تقريبا خارج البيت مطرودة لمسألة خَلقية ليست بيدها! فأعطى الرسول للمرأة قدرها. وانظر إلى التوراة كم تحتقر المرأة، ففي سفر الجامعة: «وَجَدْتُ (صِدِّيقاً) وَاحِداً بَيْنَ أَلْفِ رَجُلٍ،

---

٧٤) العين للفراهيدي: ٢/ ٨٣.

٧٥) مقاييس اللغة: ٥/ ٢٩٣.

٧٦) الجماع هنا بمعنى الاجتماع، يعني لا يجتمعون معها في البيت.

٧٧) رواه مسلم: رقم (٣٠٢) في الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها. وأبو داود رقم (٢١٦٥) في النكاح، باب في إتيان الحائض ومباشرتها. والترمذي رقم (٢٩٨١) في التفسير، باب ومن سورة البقرة.

وَعَلَى امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ (صِدِّيقَةٍ) بَيْنَ كل أولئك لَمْ أَعْثُرْ»[78].

والكلام عن حال المرأة عند غير المسلمين يطول، يكفي أن يظهر قدر المرأة في الإسلام أن يسمي سورة من سور القرآن باسم (النساء) وأخرى باسم: (مريم) ولا تجد هذا لا في التوراة ولا في الإنجيل، وسورة باسم أهلها: (آل عمران)، ويكفي أن تأتي خولة -رضي الله عنها- وقد ظاهر منها زوجها، فتأتي مشتكية إلى الرسول ﷺ، وعندما لم تصل إلى النتيجة التي ترضيها اشتكت إلى الله سبحان، فما أن اشتكت إلا وجبريل يخترق السموات السبع ويكون عند الرسول ﷺ قبل أن تخرج، ليفرج كربتها ويداوي ألمها، وينصرها بهذه الآيات، قال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [المجادلة: ١، ٢]. فقال رب العالمين إنه كان يسمع الحوار أصلا قبل أن تشتكي، ويتابع أمر هذه المرأة المتألمة من فوق عرشه.

«وعن عائشة -رضي الله عنها-: قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة: خولة إلى رسول الله ﷺ، وكلمته في جانب البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله... }»[79]. فعائشة كان يخفى عليها كلام المرأة، والله يسمعه من فوق عرشه. ونصرة هذه المرأة نزلت قرآنا، يعني ستبقى تقرأ في الصلوات إلى قيام الساعة، ويرى الناس كيف انتصر الله لهذه المرأة من فوق عرشه. والرسول ﷺ قال: «النساء شقائق الرجال»[80]. لا يستطيع أحد في الكوكب أن يزاود على الإسلام في هذا، والحديث يطول وليس هنا مكانه.

وفي النقطة الرابعة: جعل الإسلام مُفصّلا على الرجال تبعا لتاريخ تلك المرحلة، بناء على التاريخية التي تعتبر النص منتجا ثقافيا، فالآيات كما فسرها هو منغمسة في تاريخ العرب، وعليه فلا ينفعنا ذلك التراث الآن، لتغير الحال. إلا أن القرآن جاء ليغير الواقع وينتجه، لا ليخضع له ويتولد منه.

واضح أن شحرور لم يلتزم اللغة العربية، وحاول تحجيم الإسلام بالتاريخ العربي، ولم يلتزم أصول البحث العلمي في تفسيره، إذ يلقي الكلام بلا أدلة معتبرة، وبالتالي لا يمكن أن يفيد في تفسير

---

٧٨) التوراة: سفر الجامعة ٧/ ٢٨.

٧٩) البخاري: ١٣ / ٣١٦ في التوحيد، باب قول الله تعالى: {وكان الله سميعا بصيرا} تعليقا، ووصله النسائي ٦ / ١٦٨ في النكاح، باب الظهار.

٨٠) رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها: رقم (٢٣٦) في الطهارة، باب في الرجل يجد البلة في منامه، والترمذي رقم (١١٣) في الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللا ولا يذكر احتلاما، وهو حديث حسن بشواهده.

القرآن الكريم، ولا سبيل إلى مزيد من النقاش في كلامه المرسل.

المثال الرابع: يقول جلال العظم عند قوله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} [ص: ٧١ - ٧٨].

«هل تشكل هذه القصة أسطورة أم لا؟ نريد جوابا محددا وحاسما من الموفقين، وليس خطابيا. هل يفترض في المسلم أن يعتقد في النصف الثاني من القرن العشرين بأن مثل هذه الحادثة وقعت فعلا في تاريخ الكون؟ إن كانت هذه القصة القرآنية صادقة صدقا تاما، وتنطبق على واقع الكون وتاريخه، (إنها كلام منزل) لابد من القول إنها تتناقض تناقضا صريحا مع كل معارفنا العلمية... هل يفترض في المسلم في هذا العصر أن يعتقد بوجود كائنات مثل: الجن والملائكة وإبليس وهاروت وماروت ويأجوج ومأجوج، وجودا حقيقيا غير مرئي باعتبارها مذكورة كلها في القرآن؟ أم يحق له أن يعتبرها كائنات أسطورية مثلها مثل آلهة اليونان وعروس البحر والغول والعنقاء»[81].

العظم هنا يريد أن يقول إن الأمور الغيبية مثل: الملائكة والجن، معتقدات قديمة لا تصلح لهذه الأيام في القرن العشرين، فهي مجرد أساطير؛ لأنها تناقض المعارف العلمية.

أقول بداية: ما الفرق بين اليوم وبين الأمس وأيام آدم عليه السلام في الإيمان بهذه الغيبيات؟ كنت أتمنى أن يجيب عن هذا العظم؟ لكنه يستنكر فقط، مجرد الإيمان بوجود الملائكة هل يقلل من ساعات النوم مثلا؟ أو يضع غشاوة على عقل الإنسان؟ هل ثبت شيء علمي بذلك؟ ومثل ذلك الجن، وغيرها من الغيبيات، إن الغيبيات التي تؤثر تأثيرا سلبيا على الإنسان هي الكهانة والخرافات والشعوذات، وهذه كلها حاربها الإسلام حربا حاسمة. لكن الإيمان الإيجابي الحقيقي المبني على الدليل أين معاناة الكوكب منه؟

وبأي دليل علمي يربط العظم والتاريخية بين المعاصرة والتطور، وبين الكفر بالغيبيات؟ ما الفرق بين كفره وأمثاله بالملائكة مثلا وباقي الغيبيات، وكفر فرعون؟ أم كان فرعون مؤمنا بها؟ فإذا كان كفر فرعون غائرا في أعماق التاريخ والتخلف، فلماذا كفره بها حضارة وتقدم ورقي، مع عدم وجود الفارق؟ أليس الكفر بالغيبيات أقرب إلى التخلف من الإيمان بها؟

---

٨١) نقد الفكر الديني- صادق جلال العظم: ٣٦-٣٧.

وإذا كان يرى أن الإسلام عبارة عن تطور فكري، كانت العربية مهيئة له، وليس وحيا، فلماذا يسميه الآن تخلفا، عائدا بنا إلى أيام أبي جهل وفرعون والنمروذ؟

هذه الغيبيات ثبتت علميا، فالرسول ثبتت رسالته بالإعجاز، وهو الذي أخبرنا عن ربه بهذه الغيبيات، ووصلت إلينا أخبارها وآياتها عن طريق متواتر لا يسع العقل إنكاره، وليت هؤلاء يدرسون معنى الحديث المتواتر، ولذلك قال الشوكاني: «ولا يقيد ذلك بعدد معين، بل ضابطه: حصول العلم الضروري به، فإذا حصل ذلك علمنا أنه متواتر»[82]. والعلم الضروري هو العلم الذي لا يمكن جهله أو دفعه، فالعقول تتقبله مباشرة.

فأين العلم الذي يضعه العظم بجانبه دوما، دون أن يخبرنا عن هذا العلم الذي أثبت بطلان هذه المعتقدات؟ فإن أثبت العلم بطلانها، فلا يحل لعاقل اتباعها. قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١]. ولا زلنا ننتظر هذه الأدلة العلمية المعتبرة، التي أثبتت بطلان هذه الغيبيات.

طبعا الغيبيات تقف عائقا أمام التاريخية؛ لأنه يصعب أن تكون إنتاجا للبشر، وأقصد الغيبيات الإسلامية، أما غير الإسلامية فكثير منها صنعه البشر أساسا فهي منتجا لهم تحتويه التاريخية بغير عناء. ونحن حديثنا عن القرآن الكريم، الذي كان موجودا قبل البشر، وجاء محفوظا ليغير البشر دون أن يتغير، فهو فاعل بهم، وليس مفعولا كما تعتقد التاريخية.

والآن لو أردنا أن نقيّم تفسير العظم، لا يسعنا إلا أن نقول: إنه لا يمكن أن يفيد في تفسير القرآن الكريم، طالما يراه مليئا بالأساطير، ويعيب على من يتبعه، ولا يعتد بأدلة علمية منطقية مقنعة.

المثال الخامس: يقول العظم عند قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١١]

«لا شك أن إبليس خالف الأمر الإلهي عندما رفض السجود لآدم، غير أنه كان منسجما كل الانسجام مع المشيئة الإلهية، ومع واجبه المطلق نحو ربه، لو وقع إبليس ساجدا لآدم لخرج عن حقيقة التوحيد، وعصا واجبه المطلق نحو معبوده، في الواقع يثير اختبار إبليس سؤالا هاما جدا هو: هل تكون الطاعة الحقيقية في الإذعان للأمر، أم في الخضوع للمشيئة؟ هل يكون الصلاح في

٨٢) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: ١/ ١٣١.

الانصياع للواجب المطلق، أم لواجبات الطاعة الجزئية؟ نستنتج إذا موقف إبليس يمثل الإصرار المطلق على التوحيد في أصفى معانيه، وأنقى تجلياته»[83].

يبدو أن العظم قرر أن يناقش الغيبيات، وكأنه آمن بها ولم ينكرها! ولكن بطريقته: فإبليس كان محقا في عدم السجود لآدم؛ لأن السجود لآدم شرك، وإبليس موحد، وبالتالي فهو مظلوم؛ والذي ظلمه هو الله؛ لأنه سيضعه في جهنم!!

والإشكال هنا أن إبليس نفسه لم يدافع عن نفسه بهذه الحجج، وإبليس كما في الآيات احتج بأفضليته بعنصره، إذ إنه خلق من نار، وآدم خلق من طين. وهكذا يكون إبليس خيّب أمل العظم؛ لأن إبليس بيّن بصريح العبارة أنه لم يترك السجود لآدم من أجل التوحيد!! وإنما كبرا بجوهره، من نار. إذا هو كان عاصيا متكبرا.

إلا أن العظم هنا يتكلم بالعقائد، ولكن مع الأسف واضح أنه لم يطلع على هذا العلم، ولذلك لم يكن دقيقا، فالله لا يقيد عبادتنا بمشيئته، أصلا نحن لا نعلمها إلا ما أخبرنا الله به عنها. ولا يوجد في هذا الكون شيء خارج المشيئة الإلهية، مهما كان هذا الشيء، فواكه، زلزال، ملائكة، أمراض، طاعات، معاصي... لا يوجد في كون الله شيء لم يشأه، وإلا لكان هناك خالق آخر له مشيئة أخرى. الله شاء الأمراض، ولم يأمرنا بالاستسلام لها، وأمرنا بالعلاج. وشاء أن يحكمنا ظالم، ولكنه أمرنا بعدم الركون له، فقال: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: ١١٣]. الله شاء كفر الكافر ولكنه لم يرضه، قال سبحانه: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧].

العباد تعبد الله بما يرضاه لهم، ولا تتقيد بما يشاؤه سبحانه، ونتعبد الله بما أمرنا على ألسنة الرسل، ليس إلا. وإبليس هنا يتلقى الأوامر من رب الرسل، وهو أولى أن يطاع. والحديث في تفاصيل هذه الأمور يطول، فمن أرادها يرجع إليها في مظانها.

ثم إن الله لا يأمر بالشرك، ومجرد السجود لآدم لا يعني شركا، وهذه الأمور تختلف حسب الشرائع، فقد يجوز في شرائع ما لا يجوز في غيرها. والسجود ليس بالضرورة أن يكون للتعبد، يمكن أن يكون للاحترام، وسجود التعبد هو الذي حرمه الله على العالمين. وإبليس كان يفهم هذا جيدا، ولذلك لم تخف عليه أدلة العظم، وإنما كان يعلم بطلانها.

«عن معاوية بن جاهمة السلمي قال: جاء جاهمة ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت

٨٣) نقد الفكر الديني- صادق جلال العظم: ٩٠-٩١.

أن أغزو، وجئتك أستشيرك، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من أم؟ قال: نعم. قال: الزم رجلها فثم الجنة»[84]. فلو كان رجل واقفا، ثم هوى إلى قدم أمه يقبلها، لا يُعد هذا عبادة للأم، مع أنه شكلا أعظم من السجود العادي.

الذي أراده العظم من هذا إثبات أن هذه الغيبيات أساطير متناقضة؛ لأنها لو كانت حقيقية لكانت قضت على المدرسة التاريخية، إذ سيكون النص ليس منتجا للبيئة.

على كل حال واضح أن العظم مرة أخرى أثبت أنه لا يمكن أن يفيد في تفسير القرآن، طالما يرى الحق مع إبليس ضد ربه. وهنا اختل شرط من شروط التفسير وهو موافقة أصول الدين، والواضح أنه لم يعد هناك دين أصلا حسب تفسير العظم.

المثال السادس: يقول أركون عند قوله تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: ١٢٠]

«تعد القصة الشكل النموذجي الأمثل للتعبير عن الفكر الأسطوري؛ ذلك أنها تستخدم عناصر مختلفة من التراث الشفهي المشترك لدى مجموعة بشرية معينة. ولكن القصص التي تخص الأنبياء تحيلنا أيضا إلى تراث مكتوب، ومعروف جيدا: التوراة... مهما يكن من أمر، فإن مهمة التحليل التاريخي لا تتركز في الكشف عن المؤثرات التي أتت من مصدر موثوق وصحيح هو التوراة، وبالتالي إدانة الأخطاء والتشويهات والإلغاءات والإضافات التي يمكن أن توجد في النسخة القرآنية، بالقياس إلى النسخة التوراتية»[85].

ملخص كلام أركون أن القصص القرآني أسطوري غير حقيقي، وهي نسخة مزورة عن القصص الموثوق بمصدرها التوراة. وأن التحليل العلمي يكشف الزيف في القرآن.

دائما يتكلم التاريخيون عن العلم، والبحث العلمي، لكن مع الأسف لم يذكر لنا أركون دليلا على ما يقول. ولو قلنا لأركون أين البحث العلمي الذي أثبت صحة التوراة وأنها موثوقة؟ إيتينا به لتثبت صدق ما ادعيته. بل لو قلنا له أثبت لنا أن هناك نبيا اسمه موسى عن طريق البحث العلمي، واستعن بكل أهل الكوكب من إنس وجن. سيعجز، هناك دليل واحد على وجود هذه الشخصية، إنه القرآن الكريم، له فضل على اليهود والنصارى عندما أثبت شخصية عيسى وشخصية موسى والتوراة والإنجيل. وقلت إنه دليل علمي؛ لأن القرآن ثابت بالتواتر ومعجز بالتحدي.

---

٨٤) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد لصهيب عبد الجبار: ١١/ ١٦٢. وانظر صحيح الجامع: ١٢٤٨. وصحيح الترغيب والترهيب: ٢٤٨٤.

٨٥) الفكر الإسلامي قراءة علمية- محمد أركون: ١٣٠.

هل يستطيع أركون ومن شايعه أن يرد هذا الكلام عن طريق البحث العلمي؟ لقد أثبت البحث العلمي خلاف ما يقوله أركون، أثبت علماء الغرب الكثير من الأخطاء في الكتاب المقدس[86]، وقد طلبت سابقا الرجوع إلى كتاب: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم لموريس بوكاي، طبعا هناك كتب كثيرة جدا لمن يهمه الأمر في هذا المجال.

والذي أثبته القرآن عكس ما قاله أركون، فالقرآن مصحِّح لما يخفون، قال تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١٥]. وقال عنهم أيضا: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٩].

إذا القصص القرآني في رأي أركون خيال، ومزور عن التوراة، ولم يكن في قوله هذا متبعا لمنهج علمي، وخالف أصول الدين بتشكيكه بالقرآن الكريم بغير دليل. وثمرة هذا أن يصبح القرآن منتوجا بشريا لفترة تاريخية قديمة، خاضعا لتصوييات البشر وأمزجتهم، لا ينفع في عصرنا الراهن. وبالتالي لا يمكن أن يفيد أركون في تفسير القرآن الكريم.

المثال السابع: لنصر حامد أبو زيد. قال تعالى عن القرآن: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١، ٢٢].

يقول نصر: «والذي يهمنا هنا أن نلاحظ أن هذا الرأي يتصور للنص وجودا خطيا سابقا في اللوح المحفوظ. وفي هذا التصور ما فيه من إهدار لجدلية العلاقة بين النص والواقع الذي أنتجه، والثقافة التي تشكل من خلالها»[87].

يعترض نصر على أن يكون القرآن قبل نزوله في اللوح المحفوظ، مع أن الآية صريحة في أنه في اللوح المحفوظ، ولا يأتي بأي دليل على مخالفة الآية الكريمة، إلا اجتهادا من عنده، وهو أن وجود القرآن في اللوح المحفوظ يحول دون اعتباره منتجا بشريا!!

إلا أن هذا الكلام لا يكفي كدليل، طالما الحديث دوما عن البحث العلمي، فهل هناك أدلة علمية على هذا الكلام؟ من الإنصاف أن تعدل المدرسة التاريخية أفكارها حسب القرآن الكريم، إن كانت تريد أن تفيد في تفسير القرآن الكريم، وإن كنا نتبع المنهج العلمي. أما أن نرمي وراء ظهورنا

---

٨٦) راجع كتاب: خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس – لأحمد ديدات: ٧. وعنوان الكتاب عبارة عن عنوان مقالة نشرتها مجلة بريطانية اسمها: Awake العدد٨، ١٩٥٧م. كتبها غربيون. وترجمها أحمد ديدات.

٨٧) انظر: كتاب مفهوم النص – نصر حامد أبو زيد: ٤٢،٦٦،٦٧.

الآيات التي لا تروق للمدرسة التاريخية فهذا ليس أمرا سويا، فإدخال القرآن في المدرسة التاريخية لا يكون قسرا، وإنما بالدليل والبرهان.

وطالما أن القرآن في اللوح المحفوظ قبل نزوله، فهذا يعني أنه ليس منتجا بشريا، ولا مقيدا بتاريخ العرب، وهو يخاطب العالمين كما في آياته الكريمة. وبالتالي لا يمكن لنصر أن يفيد في تفسير القرآن الكريم، وهو يخالف ظاهر القرآن الكريم بلا دليل.

والأمثلة كثيرة، وفيما ذكر غنى، فالمقصد مجرد ضرب الأمثلة عن كيفية تناول المدرسة التاريخية للقرآن الكريم، وقد أصبح الأمر واضحا.

ملاحظات منهجية على المدرسة التاريخية

قبل أن أختم هذا البحث، هناك ملاحظات -غير ما سبق- فكرية منهجية على المدرسة التاريخية، أذكرها على شكل نقاط:

١. كون القساوسة في العصور الوسطى أساؤوا لدينهم ووظفوه توظيفها سلبيا لمصالحهم، لا يعني أن هذا حال أتباع الديانات كلهم، حتى في النصرانية واليهودية.

٢. هناك خلط ينبغي أن يزول، فإن ثبت بطلان دين أو تحريفه، فهذا لا يعني أن كل الأديان والمعتقدات تعاني من هذه الظاهرة، والبحث العلمي الحقيقي هو صاحب القرار.

٣. محاربة مبدأ التدين والاعتقاد في الإنسان خطأ فاحش، فهو مطلب فطري لا يستغني عنه الإنسان. فالإنسان كما هو مدني بطبعه، فهو متدين بطبعه. وإن الناظر في تاريخ الإنسانية من زمن آدم وإلى يومنا هذا، يجد أن الإنسان مخلوق متدين بطبيعته، بغض النظر عن صحة اعتقاده.

٤. إعطاء الإنسان المركز الأول في الوجود لم يؤد إلى الإلحاد فحسب، بل أضر بالإنسان نفسه؛ لأنه يتعاكس مع فطرته التي تجد في هذا الوجود ونظامه دليلا على قوة عظمى، تديره وتنظمه بكل حكمة واقتدار، ويجد في اللجوء والاستسلام لحكمة هذا الخالق ورحمته، جبرا لما يشعر به بسبب ضعفه وهو يكابد المشقات في هذا الكوكب، ويتلوى بين طعنات الأمن، وذعر الخوف، وعضة الجوع.

٥. لا بد من معرفة مصدر الخطأ فيما لو ثبت، هل هو في الدين والمعتقد، أم في اجتهاد المجتهدين والممارسين؟ فالبون شاسع.

٦. لابد أن تنتبه المدرسة التاريخية، هل ما تحققه من قبول وانتشار بسبب قوة

طرحها؟ أم بسبب ضعف المقدس في تلك الديار؟ فهذا ضروري لتقييم النفس وتقييم الآخرين.

٧. الأديان حتى بعض الوضعية منها تهدف إلى الرقي بالإنسان سلوكا وقيما، ليعمر هذا الكوكب بالعلم والأخلاق والقيم. وعندما ترى الإجرام في الأديان، واستغلال الإنسان للإنسان، فاعلم أن يد الإنسان امتدت إليها، وعبثت بتعاليمها، والحل يكون بقطع الأيادي الآثمة، وليس بقتل الدين!! فقتل الدين نصرٌ لمن جنى عليه وشوّهه! وهذا ليس من الحكمة والعدل.

٨. تصور التاريخية عن الحياة والكون أدى بها إلى هذا الانحراف: فالله موجود وحكيم ومتابع ومحاسب. خلق لحكمة، وتابع خلقه من البداية إلى النهاية. في التصور الإسلامي الخلق من الله وإليه يعود، في التاريخية وُجدنا عبثا ونذهب للتراب، فليس لهذا المخلوق متابع، وليس هناك حكمة من الخلق، وكأن الإنسان خلق نفسه. قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} [الطور: ٣٥، ٣٦]. وقال: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون:١١٥].

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، وصل الباحث إلى النتائج الآتية:

١. أن المدرسة التاريخية نشأت بعد العصور الوسطى، فيما يسمى بعصر النهضة في أوربا. مشحونة بردة فعل على الدين، إذ ترى فيه سببا مباشرا لما كان من تخلف في عصور الظلام.

٢. مما ساعد على نجاح المدرسة التاريخية في الغرب، ما أصاب الدين هناك من تشوهات في نصه، وفي سلوك القساوسة، مما أفقد القداسة للدين، والاحترام للقساوسة.

٩. تبين من خلال البحث أن المدرسة التاريخية اصطدمت بالبيئة القرآنية، ولم تتمكن من تحقيق إنجازات تذكر؛ لأن القرآن الكريم لم تمتد إليه يد البشر بالتشويه والتحريف. واحتفظ بقدره في نفوس المسلمين.

٣. بمقارنة بيئة المدرسة التاريخية ببيئة القرآن الكريم تبين أن الفترة التي تخلفت فيها أوربا بسبب الدين، كانت فترة عز وازدهار في العالم الإسلامي بسبب الدين،

مما جعل عمل المدرسة التاريخية في البيئة القرآنية عسيرا، وغير منطقي.

٤. بالاطلاع على نظرة المدرسة التاريخية إلى القرآن تبين أنها ترى الوحي ونصوص القرآن من منتجات البشر، وهي خاضعة لما يخضع له البشر من نقد.

٥. تبين أن المدرسة التاريخية ترى أن النص المقدس إذا صار بلغة قوم، وتعاملوا به في بيئتهم فعندئذ يتأنسن. ويصبح منتوجا بشريا

٦. عندما يصبح النص منتجا بشرية، ففي هذه الحال ترى التاريخية بأنه لم يعد صالحا لكل زمان ومكان، وهذا ما يتعارض مع رسالة القرآن العالمية.

٧. ظهر من خلال البحث أن بعض رواد المدرسة التاريخية اطلعوا على أصول التفسير وعلوم القرآن الكريم، إلا أنهم اختاروا نقدها ومواجهتها، وتحريفها عما أراد العلماء منها.

٨. ثبت من خلال البحث أن المدرسة التاريخية تنظر إلى القصص القرآني على أنه أساطير، لا تدل على حقيقة وواقع في أي زمان.

٩. عندما وضع الباحث يده على تطبيقات لتفاسير هذه المدرسة، تبين أنها تفسر القرآن بنية هدمه، ونسف أسسه، لا بقصد نقده وتطوير معانيه بالوسائل العلمية السليمة، كما أنها لم تنظر له بعين التقدير، وبالغت في انتقاصه.

١٠. كما ظهر من خلال البحث أن المدرسة التاريخية لا تؤمن بالغيبيات، وتعدّها من الأساطير، ومدعاة إلى التخلف.

١١. في نهاية البحث، تبين أن المدرسة التاريخية لا يمكن أن تفيد في تفسير القرآن الكريم، ما لم تصحح مسارها، على ما هو عليه الحال في أصول التفسير، وعلوم القرآن الكريم.

توصيات موضوعية للمدرسة التاريخية

حتى يستقيم أمر التاريخية في البيئة القرآنية، وتكون نافعة لبيئتها الجديدة، ساعية إلى تطويرها وخدمتها في فهم القرآن، لا بد من تصحيح المسار كما يأتي:

١. معرفة أن قياس القرآن على كتب الديانات الأخرى المعاصرة غير صحيح.

٢. التعامل مع القرآن على أنه كلام الله المعصوم المعجز، وليس منتجا بشريا.

٣. التعامل مع القرآن على أن آياته شاملة للزمان والمكان. فالعالمية ضرورية لإثبات وجود إله حكيم؛ لكون الرسول محمد ﷺ آخر الرسل، وكتابه آخر الكتب.

٤. الاستعانة بالبيئة على فهم الآيات الكريمة، لا لدسّها بتراب تاريخها.

٥. توظيف القدرات اللغوية الحديثة، ومناهج البحث، لاستكشاف أبعاد الهداية

الإلهية حسب المقصد الإلهي.

٦. الإنصاف، والموضوعية، فإن التاريخيين يعلمون أن العرب لم يكونوا شيئا مذكورا قبل القرآن الكريم، وأنهم بسببه سيطروا على مشارق الأرض ومغاربها، ونشروا الحضارة في وقت كان فيه غيرهم أقرب ما يكون إلى التوحش في ضياع المعرفة والقيم.

٧. الكف عن مهاجمة الدين (كمبدأ)، فإن الإنسان لا يستغني عن الدين، وليس من صالحه التنكر له، فالدين الحق يروي أرواحهم ويهذب أفكارهم وقيمهم، ليعيشوا في كوكب يعمه السلام والأمان.

٨. ويمكن للتاريخية أن تترك كل التوصيات السابقة، وتتمسك بشيء واحد، وهو أن يكونوا أمناء في البحث العلمي، وهو سيوصلهم إلى كل ما ذكرته آنفا وغيره.

تم البحث بفضل الله

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

- الإتقان في علوم القرآن – عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

- أثر الحضارة الإسلامية على الشرق والغرب، جوستاف لوبون نموذجا، دار العلم والإيمان– مصر، ٢٠١٤.

- الإحكام في أصول الأحكام – أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي، المحقق: عبد الرزاق عفيفي. المكتب الإسلامي، بيروت– دمشق– لبنان

- إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول – محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق –كفر بطنا، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م

- الإسلام السياسي– محمد سعيد العشماوي، مكتب مدبولي الصغير، ط٤، ١٩٩٦.

- إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، المحقق: السيد أحمد صقر، دار المعارف — مصر، ط٥، ١٩٩٧م

- بذل المجهود في إفحام اليهود – السموءل بن يحيى بن عباس، دمشق – دار القلم. ط١ – ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

- البرهان في علوم القرآن – أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م

- بنو إسرائيل في القرآن الكريم – د. محمد عبد السلام محمد. ط١

- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس – حسين بن محمد بن الحسن الدِّيار بَكْري، دار صادر — بيروت

- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس– خليل إبراهيم السامرائي – د عبد الواحد ذنون طه – د ناطق صالح مصلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠ م

- تاريخ أوربا في العصور الوسطى– سعد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧٦.

- تاريخية الدعوة المحمدية في مكة– هشام جعيط، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧.

- تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦.

- تأويل مشكل القرآن – أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

- التراث والتجديد –حسن حنفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ١٩٩٢

- التفسير الكبير =مفاتح الغيب – أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن التيمي، الرازي، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ

- التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث– موريس بوكاي، طرابلس – جمعية الدعوة الإسلامية – ليبيا.

- جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير بن يزيد الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة. ط١. ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م

- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد – صهيب عبد الجبار، ٢٠١٤

- الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م ١١٢.

- خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس – أحمد ديدات، مكتبة ديدات.

- الرمز في القرآن- الصادق النيهوم، تالة للطباعة والنشر- ليبيا، طرابلس، ط١، ٢٠٠٨.

- سنن أبي داود- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد . بيروت . دار الفكر

- سنن الترمذي – محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨ م

- شرح الشفا – علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ

- صحيح البخاري- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة . ط١ . ١٤٢٢هـ

- صحيح الترغيب والترهيب- محمد ناصر الدين الألباني، مكتَبة المعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

- صحيح السيرة النبوية – محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية- عمان– الأردن، ط١

- الصحيح المسند من أسباب النزول – مُقْبلُ بنُ هَادِي بنِ مُقْبِلِ بنِ قَائِدَةَ الهَمْدَاني الوادعِيُّ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط٤، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م

- صحيح مسلم- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت

- العين للفراهيدي- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال

- فتح الباقي بشرح ألفية العراقي – زين الدين أبي يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري السنيكي، المحقق: عبد اللطيف هميم – ماهر الفحل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

- فضائل القرآن – أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، المحقق: د. فاروق حمادة، دار إحياء العلوم / دار الثقافة – بيروت / الدار البيضاء، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

- الفكر الإسلامي قراءة علمية- محمد أركون، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦

- الفن القصصي في القرآن- محمد أحمد خلف الله، بيروت، ط١، ١٩٥٠

- فهم القرآن الحكيم- محمد عابد الجابري، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ط١، ٢٠٠٨

- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني- محمد أركون، دار الطليعة . بيروت – ط١، ٢٠٠٥.

- الكتاب والقرآن- محمد شحرور، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق.

- الكتاب المقدس . دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط . ١٩٨٧م.

- مباحث في علوم القرآن – صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٢٤، ٢٠٠٠

- مجلة البيان: ع١٩/٧٣. الإمارات.
- مجلة مواقف، مقالة: الإسلام والحداثة- محمد أركون، ع٥٩-٦٠، لبنان بيروت.
- محاضرات في النصرانية- محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي – القاهرة، ط٣، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٦ م
- مدخل إلى القرآن الكريم – محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم – محمد بن محمد أبو شهبة، غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م
- المستصفى – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
- المعجم الفلسفي- جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.
- معجم اللغة العربية المعاصرة- أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
- المعجم الوسيط- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة
- معجم مقاييس اللغة- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مفهوم النص – نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٦
- مقدمة في أصول التفسير- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد ابن تيمية الحراني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م
- من اليهودية إلى الصهيونية – د. أسعد السحمراني، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٠.
- مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣
- الموافقات – إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية – أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، شهاب الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة
- النبأ العظيم – محمد بن عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ت – أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير بالرياض، ط١، ١٤٢٢هـ
- نقد الخطاب الديني- نصر حامد أبو زيد، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢
- نقد الفكر الديني- صادق جلال العظم، دار الطليعة للطباعة والنشر- ط٢، ١٩٧٠. بيروت.
- نقد النص- علي حرب، المركز الثقافي العربي، الغرب، الدار البيضاء، ط٤، ٢٠٠٥.